# الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر

## من خلال رحلة دومينجو باديا (علي باي العباسي)

**أ. عبدالحفيظ حمان**
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم التاريخ - تطوان - المغرب

عرفت البلاد الإسلامية منذ فترة العصور الحديثة زيارة عديد من الرحالة الأوربيين، لتحقيق أهداف محددة ومختلفة في آن واحد، ما بين التنصير والتجسس والبحث الدقيق في أحوال المجتمعات الإسلامية التي ظلت عبر عصور طويلة مشعل الحضارة، وقبلة كل راغب في التزود بالعلم والمعرفة، وكانت الجزيرة العربية - وبالأخص منطقة الحجاز - من بين الأقطار الإسلامية التي استقطبت أنظار هؤلاء الرحالة من أجل سبر أغوارها، وتجميع معلومات تهم بالأساس الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

وإلى حدود القرن الثامن عشر لم تكن أوربا قد وجهت اهتمامها إلى الجزيرة العربية، ولم تتوافر لديها معلومات حول منطقة الحجاز إلا من خلال كتب الجغرافيين المسلمين كالإدريسي وأبي الفدا، وكذلك الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة، أو من خلال كتب بعض الرحالة الأوربيين نذكر منهم النمساوي ويلد (Wild) الذي نشر سنة ١٦٠٤م كتابا حول مكة والمدينة لم يكن ذا أهمية تذكر، كما نجد

بين هذه التآليف يظل كتاب فارطيما (Varthema) الأكثر أهمية من ناحية شموليته؛ فقد تجاوز منطقة الحجاز ليكشف للجغرافيين والمهتمين معطياتٍ جديدةً تهم ميدان الجغرافية الطبيعية لبعض مناطق الجزيرة العربية(١). وعلاوة على هذه الرحلات نجد بعض الرحالة الأوربيين قاموا بزيارة الجزيرة العربية، وتركوا كتبا حول المناطق التي زاروها(٢).

وباستثناء هذه الكتب عُدِمت المعلومات عند الأوربيين حول الجزيرة العربية، ما عدا ساحلها الغربي الممتد على طول البحر الأحمر الذي زاره كل من جيمس بروس (James Bruce) سنة ١٧٦٩م وإيلس إروين (Eyles Irwin) سنة ١٧٧٧م؛ فقد استقر الأول في الميناء اليمني المخا (Moka) مستخدمًا لدى "الشركة الإنجليزية للهند" التي كلفته باستكشاف الطريق البري من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض المتوسط؛ إذ تمّ اعتقاله في ينبع، إلا أنه أطلق سراحه في مدينة جدة. أما الثاني وهو بروس فقد عبر البحر الأحمر من أثيوبيا ليدخل إلى

---

(١) لودوفيكو دي فارطيما (Ludovico di Varthema) إيطالي، له رحلات في مصر وسوريا والجزيرة العربية وإيران والهند وإثيوبيا، ابتداء من سنة ١٥٠٣م، زار مكة والمدينة، كتابه طبع في إيطاليا بروما سنة ١٥١٠م، وفي ١٥١٧م، في البندقية سنة ١٥١٨م، ١٥٣٥م و ١٥٦٣م. الترجمة الفرنسية الأولى نشرت سنة ١٥٥٦م من طرف لويس طونبرال (Louis Temporal) تحت عنوان: .Voyages de Loys Bartheme. أما الترجمة الإنجليزية فظهرت سنة ١٥٧٦ – ١٥٧٧م. انظر: R.H. Kiernan : l'exploration de l'Arabie depuis les temps anciens jusqu'à nos jours . Traduit de l'anglais par : Ch. Mourey . Edit. Payot , Paris 1938 , p.103 .

(٢) نذكر منهم: جوزيف بيتس (Joseph Pitts) الذي كان أول إنجليزي يزور الحرمين، نشر كتابه في القرن الثامن عشر تحت عنوان:

A Faithfull Account of the Religion and Manners of the Mahometans.

وفي منتصف القرن السابع عشر أرسل ملك الدانمرك فريد يريك الخامس بعثة إلى الجزيرة العربية مكونة من سبعة أفراد من بينهم : كارستن نيبور (Karsten Niebuhr)، ترك كتابا تحت عنوان: .Les voyages à travers l'Arabie نشر بالألمانية سنة ١٧٧٢م، وبالفرنسية في أمستردام سنة ١٧٢٤م و ١٧٨٠م، وبالإنجليزية سنة ١٧٩٢م. انظر: Kiernan : Ibid. pp. 82,83,117 .

مدينة جدة؛ إذ استقبل بكل حفاوة، وترك لنا وصفا لميناء هذه المدينة، ومعلوماتٍ تهم الميدان الجغرافي والاقتصادي لهذه المنطقة(٣).

وهكذا طيلة القرن الثامن عشر ظلت أوربا لا يتوافر عندها إلا معلومات بسيطة وشذرات قليلة حول الجزيرة العربية. إلا أنه بحلول القرن التاسع عشر انصب اهتمام أوربا بهذه المنطقة بعد ظهور الحركة الإصلاحية التي أحدثت تغييرات على المستوى الديني والسياسي، وما صاحبه من أحداث عسكرية كان لها صدىً في المجتمعات الأوربية وعند دولها. وانطلاقا من هنا أخذت منطقة الحجاز تجلب أنظار الرحالة الأوربيين؛ ليتوافدوا عليها، ويقوموا بجمع معلوماتٍ تهم جميع المستويات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وفي طليعة هؤلاء، الرحالة الإسباني دومينجو باديا إي ليبليش (Domingo Badia y Leblich) الذي دخل منطقة الحجاز عبر مدينة جدة تحت اسم "علي باي العباسي". فمن هذا الرحالة ؟ وما الحالة العمرانية والجغرافية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت عليها بعض مدن منطقة الحجاز في مطلع القرن التاسع عشر، من خلال الوصف الذي قدمه الرحالة الإسباني؟ وأين تكمن قيمة رحلته ؟.

## التعريف بالرحالة ومصدر رحلته :

تكاد تنعدم المعلومات حول هذا الرحالة وحياته، إلا بعض الشذرات القليلة المتناثرة هنا وهناك في بعض المراجع، وبالأخص الأجنبية منها(٤).

---

(3) Kiernan : Ibid . p. 104 .

(٤) حول حياته راجع :

Garcia de Herros :Quatre voyageurs espagnols à Alexandrie d'Egypte. Alexandrie ; ١٩٢٣ ; & G. Spillmann :Napoléon et l'Islam Paris, Edit.L.A.P. 1969 , & H.de Castires : " Napoléon et le Maroc " dans Revue Hebdomadaire , n_ 16 , 8 avril 1908 .

فقد ولد دومينجو باديا في برشلونة سنة ١٧٦٦م، من أم ذات أصل بلجيكي، ومن أب كان يعمل أمينا في الجهاز المالي للمدينة. وكان باديا (Badia) ملما بقسط وافر من المعرفة أهّله لكي يعيّن موظفا بالإدارة المالية في غرناطة، وهو في الرابعة عشرة من عمره(٥). وبعد بلوغه التاسعة عشرة خلف والده في وظيفته التي كان يشغلها في البيرة في مقاطعة ألمريا (Alméria).

وبعد زواجه نقل إلى قرطبة ليشغل مدير الاحتكارات الملكية للتبغ. وكان لهذه المدينة تأثير كبير عليه دفعه إلى التأمل وحب المعرفة، للقيام برحلات استكشافية كانت انطلاقتها الأساسية موجهة نحو البلدان الإسلامية.

كانت طموحات دومينجو باديا ورغبته في إنجاح مشروعه حافزا له في تعلم الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والتاريخ الطبيعي، وكل العلوم الضرورية التي يمكن أن تساعده في رحلته، ويستفيد منها خلال جمع المعلومات والقيام بالملاحظات. وإلى جانب ذلك ركز اهتمامه على تعلم اللغات الشرقية وخصوصا العربية.

وفي ٧ أبريل ١٨٠١م قدم باديا مذكرة إلى الحكومة الإسبانية تحمل مخططا لرحلته الاستكشافية والعلمية والسياسية، وأشار في هذه المذكرة إلى أن رحلته لا يمكن أن تكلل بالنجاح في البلدان الإسلامية، وأنه لا يستطيع تخطي الصعوبات والعقبات التي قد تعترض طريقه عند الشعوب الإسلامية، إلا إذا تقدم لديهم في صورة مسلم، يحمل اسما إسلاميا، وينحدر من عائلة مسلمة تنتمي إلى شجرة الأشراف. "وبناء على ذلك يسترسل باديا موضحا في مذكرته: ينبغي أن تكون ذا أصول إسلامية حتى تحوز على

---

(٥) هناك مراجع تؤكد على أنه أنهى دراساته في جامعة بلنسية (Valencia)، انظر بالخصوص : Spillmann : op. cit. p. 275.

الحظوة والمكانة لدى المسلم الآخر... ومن أجل مشروع كهذا لا ينبغي فقط أن تلبس وتتقلد الزي الإسلامي، وتطيل لحيتك، وتتكلم العربية، وتعتنق دين محمد، ولكن ينبغي بالأساس أن تثبت أنك عربي المولد والمنشأ، وهذا هو المفتاح لكل أبواب إفريقيا"(٦).

وبغية تنفيذ ذلك قرر دومينجو باديا تقمص شخصية أمير عربي من أصل سوري، ولد بمدينة حلب، ينتمي إلى سلالة العباسيين، ولقب نفسه باسم "علي باي العباسي"، الذي تحت ستاره سيتجول داخل الأقطار الإسلامية.

تحت هذا الغطاء العلمي والسياسي وافق الملك الإسباني شارل الرابع (Charles IV) والحكومة الإسبانية على مشروع الرحلة وتمويلها. ومن أجل استكمال إجراءاته سافر باديا إلى لندن لصنع واقتناء الوسائل التي يحتاج إليها في رحلته، كما قام في العاصمة الإنجليزية بعملية الختان عند طبيب يهودي(٧).

وبعد مغادرته إنجلترا زار العاصمة الفرنسية باريس حيث تقدم إلى المعهد العلمي ووزارة الخارجية مختفيا بزيه الإسلامي، ومقدما نفسه تحت اسم "علي باي". وفي المعهد وضع مشروعاته الاستكشافية العلمية، واستطاع حيازة الثقة حتى من طرف وزير العلاقات الخارجية طاليران (Talleyrand).

كانت العاصمة الإسبانية مدريد هي محطته الأخيرة قبل مغادرته القارة الأوربية ليبدأ رحلته سنة ١٨٠٣م التي قادته في البداية إلى

---

(6) H. de Castries : op.cit. p. 4 .

(٧) حول عملية الختان يقول في كتابه : " سمعت كلاما يقال للنصارى مفاده أن بعضًا من الذين زاروا البلاد الإسلامية، وسافروا في أمان، تمّ لهم ذلك بواسطة ارتدائهم زي السكان؛ ولكني أرى أن هذا مستحيل إذا لم يكونوا قد قاموا بعملية الختان، بسبب أن هذه المسألة هي أول ما يستعلم عنه بمجرد رؤية الأجنبي، بحيث إنه بمجرد وصولي إلى طنجة استفسروا مني شخصيا ".

El Abbassi Ali Bay :Voyages d'Ali Bay el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les annés 1803 - 1807. Paris 1814 ; Tome I ; p. 18 .

المغرب، ومن المغرب سافر إلى طرابلس فقبرص فمصر، ثم إلى مكة لأداء فريضة الحج، ففلسطين فسوريا فتركيا؛ ليعود أخيرا إلى وطنه في مايو ١٨٠٨م. وقد توفي سنة ١٨١٨م حيث دفن في حصن البلقاء (الجنوب الشرقي للأردن حاليا)، وكان بصدد إنجاز رحلة استكشافية ثانية إلى بلدان المشرق الإسلامي لحساب فرنسا.

وعن هذه الرحلة ألف كتابا تحت عنوان "رحلات علي باي العباسي إلى إفريقيا وآسيا خلال الأعوام ١٨٠٣ - ١٨٠٧م"، صدر أول مرة في باريس سنة ١٨١٤م تحت ثلاثة أجزاء باللغة الفرنسية، وأصدر معه ملحقا يضم خرائط ومجموعة من الرسوم تبلغ ثلاثة وثمانين(٨).

وفي عام ١٨١٦م انتشر كتاب باديا في بعض أقطار أوربا؛ فقد ظهرت الترجمة الإنجليزية في جزأين تحمل عنوان : "رحلات علي باي في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا بين أعوام ١٨٠٣ - ١٨٠٧م"، وفي الوقت نفسه ظهرت الطبعة الألمانية في جزأين أيضا، وصدرت في مدينة وايمر (Weimar).

وبعد ذلك جاءت الطبعة الإيطالية في أربعة أجزاء، وصدرت عامي ١٨١٦ - ١٨١٧م، أما الطبعة الإسبانية فلم تنشر إلا بعد أن عمّ الكتاب كل أوربا، فنشر في بلنسية في ثلاثة أجزاء عام ١٨٣٦م(٩).

## محتوى الرحلة :

وإذا رجعنا إلى مضمون رحلة علي باي ومحتواها الخاص بمنطقة الحجاز، نجد أن النصيب الذي حظيت به هذه المنطقة في

---

(٨) اسم الكتاب بالفرنسية هو المشار إليه آنفا في الهامش رقم ٧؛ وهو الذي اعتمدناه في هذا البحث.

(٩) الطاهر أحمد المكي : ( أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر)، مجلة الفكر العربي، العدد ٥١، (يونيو ١٩٨٨م)، ص ١٨٨.

كتاب الرحالة يتجلى في عشرة فصول، ثمانية منها في الجزء الثاني من الكتاب وفصلين في الجزء الثالث، وذلك وفق التصميم الآتي :

**الجزء الثاني :**

- الفصل الثالث عشر (من صفحة ٢٦٠ إلى صفحة ٢٩٥).

عبور البحر الأحمر - الوصول إلى جدّة - مشكلة مع الحاكم - وصف جدّة.

- الفصل الرابع عشر (من صفحة ٢٩٦ إلى صفحة ٣٢٥).

تكملة الحج - قرية الخدّة - الوصول إلى مكة : مراسيم الحج في بيت الله - في الصفا والمروة - زيارة داخل الكعبة أو بيت الله - التقديم إلى شريف مكة - زيارة عند رئيس الشرفاء - تطهير أو غسل الكعبة - لقب الشرف الذي حصل عليه علي باي - وصول السعوديين.

- الفصل الخامس عشر ( من صفحة ٣٢٦ إلى صفحة ٣٤٣ ).

الحج في عرفات - التجمع الكبير للحجاج - وصف عرفات - سلطان وجيش السعوديين - المراسيم في عرفات - الرجوع إلى مزدلفة - الرجوع إلى منى والمراسيم هناك - الرجوع إلى مكة ونهاية الحج - ملحق لمراسيم الحج.

- الفصل السادس عشر ( من صفحة ٣٤٤ إلى صفحة ٣٧٨).

وصف الحرم - الكعبة أو بيت الله - مقام إبراهيم - بئر زمزم - باب السلام - المنبر - أماكن الصلاة - الأعمدة النحاسية والقناديل - الدور الأرضي - الحمام - القبّتين - الساحة - الأروقة - الأبواب - الصفا والمروة - خدام الحرم.

- الفصل السابع عشر (من صفحة ٣٧٩ إلى صفحة ٣٩٨).

وصف مكة - الموقع الجغرافي - طوبوغرافية مكة - الأبنية -

الأسواق العمومية - القوت والمعيشة - الفنون والعلوم - التجارة - الفقر - الانحطاط.

- الفصل الثامن عشر (من صفحة ٣٩٩ إلى صفحة ٤١٦).

النساء - الأطفال - اللغة - اللباس - الأسلحة - الجفاف - الأعراس، المواليد والوفيات - المناخ - الطب - بلسم مكة - شقوق في الوجه.

- الفصل التاسع عشر (من صفحة ٤١٧ إلى صفحة ٤٣٩).

الخيول - الحمير - الجمال - الحيوانات الأخرى - الزرابي - السبحات - الجبال - الحصون - منازل الشريف - سلطان الشرفاء - الوضعية السياسية لمكة - التغيير في السلطة - الحرم أو أرض الإسلام المقدسة - جبال الحجاز.

- الفصل العشرون (من صفحة ٤٤٠ إلى صفحة ٤٦٠).

ملخص عن الحركة الإصلاحية في الجزيرة العربية وما أسماها المؤلف خطأ بالوهابية: مبادئهم الدينية - حملاتهم العسكرية الأساسية - أسلحتهم - عاصمتهم - تنظيمهم - الاحترام الذي يحظون به.

**الجزء الثالث:**

- الفصل الأول (من صفحة ١ إلى صفحة ١٩).

رجوع علي باي إلى جدّة - الموقع الجغرافي - مذكرات - العبور إلى ينبع.

- الفصل الثاني (من صفحة ٢٠ إلى صفحة ٤١).

السفر إلى المدينة - إيقاف علي باي من طرف السعوديين - المضايقات الناتجة عن ذلك - إرجاع علي باي مع خدام مسجد المدينة - ينبع.

إذا تأملنا في هذه العناوين الجزئية المدرجة في كل فصل على حدة نستطيع تسجيل الملحوظات الآتية :

الأولى : اختلاف الموضوعات التي تطرق إليها باديا في متن رحلته وكثرتها.

الثانية : عدم وجود نسق موضوعي يربط جل المعلومات مع بعضها الآخر في وحدة متكاملة. وهذا ينطبق على كل الفصول بصفة عامة، كما يمكن إدراكه في كل فصل على حدة.

الثالثة : التغطية الشاملة لكل الجوانب ولكل المستويات دون إغفال أية صغيرة أو كبيرة.

وعلى العموم يمكن تصنيف المعلومات التي جاء بها الرحالة الإسباني حول منطقة الحجاز في بداية القرن التاسع عشر في النقط الآتية :

أولا : وصف بعض مدن الحجاز ومرافقها ونظامها الإداري.

ثانيا : الحياة الدينية.

ثالثا : الحياة الاقتصادية.

رابعا : الحياة الاجتماعية.

## مدن الحجاز ومرافقها :

### ١- مدينة جدة :

في يوم الاثنين ١٥ ديسمبر ١٨٠٦م خرج علي باي من القاهرة قاصدا الحجاز لتأدية مناسك الحج. وبعد التجمع التقليدي في ضواحي القاهرة لقوافل الحجاج الآتية من الأقطار الإسلامية لشمال إفريقيا ولجنوب الصحراء الكبرى الذي قدّره الرحالة بما يناهز "الخمسة آلاف من الإبل" انطلقت القافلة في يوم ١٨ من الشهر نفسه تجاه الديار المقدسة، وبعد يومين من المسيرة وصلت إلى مدينة

السويس على البحر الأحمر. وفي يوم ٢٣ ديسمبر خرج علي باي على متن سفينة عابرا البحر الأحمر تجاه جدّة التي وصلها يوم ١٣ يناير من سنة ١٨٠٧م، وكانت أول مدينة في منطقة الحجاز يحط فيها رحاله.

**أ - وصف المدينة:**

في وصفه لمدينة جدة يقدم باديا صورةً حسنة؛ إذ يقول : "جدّة مدينة جميلة، شوارعها منتظمة، ومنازلها مستحسنة مكونة من طابقين أو ثلاثة طوابق ومبنية كلها بالحجر بطريقة متينة... والمدينة محاطة بسور جميل، توجد به أبراج متفاوتة وغير منتظمة، وعلى بعد عشر خطوات يوجد خندق يناهز عرضه عشرة أقدام، وعمقه اثنا عشر تقريبا، غير أنه عديم الجدوى" (٢ / ٢٨٧-٢٨٨).

وفي أثناء حديثه عن موقع جدة لا يذكر باديا سوى أنها تقع على هضبة تمثل صحراء بمعنى الكلمة، وطقسها يتميز بالتقلبات من يوم لآخر بين أقصى الجفاف وأقصى الرطوبة، وهذا يخضع للتغييرات التي تحصل في هبوب الرياح؛ إذ يلحظ ذلك باديا بقوله :" إن الرياح الشمالية التي تعبر صحاري الجزيرة العربية تعطي جفافا تاما عندما تصل إلى مدينة جدة،... وسرعان ما يتحول اتجاهها لتهب من الجنوب، وفي هذه الحالة يصبح الجو مشبعا بالرطوبة" (٢/٣٩٤)، "أما الأمطار فهي قليلة نظرا للمناخ الصحراوي، فيما عدا فصل الخريف، حيث تكون التساقطات كافية لملء الخزانات المخصصة لهذا الغرض" (٣/٥).

وكعادته في كل المدن التي زارها لا بدّ أن يحدد باديا موقعها من ناحية خطوط الطول والعرض. وفعلا عندما دخل إلى مدينة جدة ذكر لنا موقعها الجغرافي، إلا أنه يرجع ويصحح ذلك عند رجوعه إلى جدّة يوم ٣ مارس ١٨٠٧م، فحدد خطوط الطول بدرجة ٤٥ - ٥٤، وخطوط العرض بدرجة ٢١ - ٣٢.

### ب - نظامها الإداري :

حول هذا الجانب لم يتحدث باديا بإسهاب؛ فعند دخوله إلى مدينة جدّة وفي سياق حديثه عن بعض الأحداث التي وقعت له مع سلطات المدينة، يذكر لنا أن السلطة السياسية في المدينة كان يمارسها شخص تحت لقب الوزير، تابعٌ في ولائه لشريف مكة (٢/٢٨٤)، وإلى جانبه كان القاضي السعودي يمارس سلطة القضاء باسم الإمام سعود (٣/٦).

وفي أثناء حديثه عن السلطات الموجودة بالمدينة سجل باديا ظاهرة جديدة أحدثها السعوديون إلى جانب المؤذنين، وتتمثل في وجود أشخاص يحثون الناس على الذهاب إلى المساجد أثناء أوقات الصلاة، وينفذون العقوبة على المتأخرين في ذلك، وفي هذا الصدد يقول: "أثناء أوقات الصلاة يمرون بالشوارع صائحين بأعلى أصواتهم : هيا إلى الصلاة، إلى الصلاة، ويحثون السكان على الذهاب إلى المساجد، ويجبرون التجار والصناع على مغادرة دكاكينهم ومتاجرهم وأوراش عملهم لحضور الصلاة. ويتكرر ذلك في كل الصلوات الخمس" (٣/٦).

### ج - الحياة الاقتصادية بجدّة :

في هذا الجانب نجد الرحالة الإسباني يتحدث عن ثلاثة عناصر، يمكن إجمالها على الشكل الآتي : الأسواق العمومية، الحياة التجارية والمبادلات، وأخيرا الثروة الحيوانية بالمدينة.

#### - الأسواق العمومية :

إن أول ما استرعى انتباه باديا هو التموين الجيد بالخضر والفواكه والمنتوجات المتنوعة التي تتوافر في الأسواق العمومية بمدينة جدّة مع ارتفاع الأسعار. وفيما يخص هذا التموين يسجل باديا ملحوظاته في الآتي :" إن الخضر تأتي من مكان بعيد، نظرا

لعدم وجود الحقول والبساتين بسبب انعدام المصادر المائية بضواحي جدة. أما الماء الذي نشربه بهذه المدينة فيتميز بجودته، وهو ماء الأمطار الذي يتم تخزينه في أحواض وخزانات ممتازة" (٢/٢٨٨).

**- المبادلات التجارية :**

يبدأ باديا حديثه في هذا الميدان حول القيمة التجارية لمدينة جدة بقوله :" هذه المدينة هي عبارة عن المركز الأساسي الذي تتمحور حوله التجارة الداخلية للبحر الأحمر" (٢/٢٨٩). وعند إثارته لموضوع المبادلات التجارية يركز باديا على أنواع البضائع التي تشكل الواردات والصادرات لميناء جدة، من مختلف الموانئ الأخرى وإليها.

بخصوص المستوى الأول يقول بأن جدّة تستقبل : "السفن الآتية من مدينة مُخا (في اليمن) والمحملة بالقهوة وبضائع الهند وجميع بلاد المشرق، ومن جدّة يتم حملها في سفن أخرى إلى السويس وينبع والقصير، وإلى نقط تجارية أخرى في الجزيرة العربية وإفريقيا" (٢/٢٨٩).

وفي موضع آخر يسجل دخول سفن أخرى إلى جدة من منطقة البنغال محملة بالأرز، وعن عددها يقول : "تستقبل جدة سنويا أربعًا أو خمسًا من هذه السفن التي تحمل ليس الأرز فقط، وإنما كذلك منتوجات أخرى من الهند" (٣/٨).

ونجده كذلك يفسر الكيفية التي تتم بها هذه المعاملات والمبادلات التجارية فيقول: "يقوم تجار مدينة مُخا بإرسال البضائع إلى جدّة، ويقوم تجار القاهرة بواسطة الوكلاء في السويس بإرسال اعتماداتهم إلى جدّة لشرائها. كما يتم نقل بعض السلع الأوربية - وبالأخص الأقمشة - إلى جدة عن طريق السويس" (٢/٢٩٠).

وفيما يخص عدد السفن التي تعبر البحر الأحمر ما بين جدة والسويس ومدينة مُخا، فإن باديا يقدر عددها بما يناهز مئة سفينة.

يقول باديا : "وإذا استثنينا التي يصيبها العطب أو التي تخضع لعملية الإصلاح، فإن هذا العدد ينزل إلى ثمانين سفينة" (٢/٢٩٣).

ولا يفوت باديا ذكر الشخصيات التجارية في مدينة جدة، وعلى رأسها يذكر التاجر العربي المسمى الجيلاني، وعنه يقول : "إنه الشخصية الأساسية وأشهر تاجر في المدينة، إنه شخص ذو موهبة فذة، يرتبط بالخصوص مع الإنجليز، إذ إن جل معاملاته التجارية تتم معهم" (٢/٢٩١).

وقد حاول باديا - فيما يبدو - أن يفسر في مكان آخر العوامل التي تؤثر في تجارة بلاد المشرق بصفة عامة، وفي ازدهار التجارة في مدينة جدّة بصفة خاصة، وفي مقدمة هذه العوامل نجده يذكر الحروب الأوربية التي كان لها أثر كبير في شل الحركات التجارية ببلاد المشرق.

ويمكن مسايرة هذا التفسير الذي أدلى به باديا؛ وذلك أنه نظرًا للحروب التي كانت تدور رحاها في حوض البحر الأبيض المتوسط التي يطلق عليها عادة اسم "الحروب النابليونية"، بالإضافة إلى السياسة التي اتبعتها بريطانيا في صراعها مع فرنسا الثورة، وسمتها بـ "سياسة الحصار البحري"(١٠)، والسياسة التي نهجتها فرنسا ردًا عليها، وأطلقت عليها اسم "سياسة الحصار القاري"(١١)، كل هذه

---

(١٠) أعلنت إنجلترا هذه السياسة في ١٨ مايو ١٨٠٦م ضد فرنسا، وتقتضي حصار كل سواحل القارة الأوربية، ومراقبة الملاحة في البحار من أجل منع السفن من ولوج الموانئ الفرنسية، ومنعها من حمل أية بضائع ذات أصل فرنسي.

(١١) تقتضي هذه السياسة التي شرع بونابرت في تنفيذها ابتداء من مرسوم برلين ٢١ نوفمبر ١٨٠٦م بأن الجزر البريطانية تعد في حالة حصار، ونتيجة لذلك فإن كل تجارة مع إنجلترا تعد ممنوعة، وكل بضاعة من أصل إنجليزي - في أي مكان تمّ حجزها - تنبغي مصادرتها، وكل سفينة وصلت إلى سواحل إنجلترا أو إلى المستعمرات البريطانية - كيفما كانت جنسيتها - لا ينبغي استقبالها في أي ميناء، وإذا دخلت إليه تحت تصريح خاطئ ينبغي احتجازها، وتمّ تطبيق هذه السياسة في كل البلدان الأوربية الخاضعة للنفوذ الفرنسي وفقا للبرنامج الذي اقترحه بونابرت.

العوامل أسهمت في إضعاف التجارة ببلاد المشرق والمبادلات التجارية بين هذه المنطقة وباقي البلدان الأخرى، وبالأخص أوربا الغربية.

**- الثروة الحيوانية :**

أما الثروة الحيوانية فإن باديا وقف على الخيول والبغال والحمير... فعن الأولى يقول: إنه لم يعثر على الخيول العربية الأصيلة بمدينة جدة، إلا على عدد قليل كان بحوزة بعض التجار الأغنياء، كما لحظ انعدام البغال، أما الحمير فقد أثارت انتباهه ووصفها بالجودة من ناحية حجمها وتكوينها. وفيما يخص الإبل أو الجمال فإنها من أكثر الحيوانات عددا في جدّة (٢/٢٩٢).

### د - الحياة الاجتماعية :

**- السكان والفئات الاجتماعية :**

عند حديثه عن السكان في مدينة جدة يستهل باديا كلامه بتقدير عددهم بقوله :" تقدر ساكنة جدة بخمسة آلاف نسمة" (٢/٢٨٨).

وعن الفئات المكونة لهذه الساكنة يقول : "يظهر لي أن سكان جدة هم خليط من العنصر العربي والإثيوبي أو الزنجي وقليل من العنصر الهندي. لقد لاحظت وجود عناصر لها علاقة في صورها وشكلها بالسحنة الهندية التي تتقارب مع السحنة الصينية " (٢/ ٢٩٢/٢٩٣).

وينفي باديا وجود العنصر الأوربي بمدينة جدّة عدا بعض النصارى الأقباط : "المنعزلون في منزل أو ثكنة مجاورة لرصيف الركوب" (٢/٢٩١).

وعند حديثه عن سكان جدة يذكر باديا إعجاب هؤلاء بالفرنسيين ومحاولة التقرب إليهم قائلا : "أعتقد أنهم (يعني سكان

جدة) بدؤوا يظهرون إعجابهم بالفرنسيين "، أما سبب ذلك فيرجعه باديا إلى : "رؤيتهم حسن السلوك والسياسة التي انتهجها الفرنسيون في مصر" (٢/٢٩١).

يمكن إرجاع هذا التفسير الذي أدلى به باديا إلى السياسة التي انتهجها نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر سنة ١٧٩٨م، وهي التي سميت "بالسياسة الإسلامية"؛ فقد كان نابليون يدرك أن هذه الحملة التي يقودها تعد أول اصطدام فعلي ومباشر بين فرنسا الحاملة لأفكار الثورة الفرنسية ومبادئ النظام الجمهوري، وبين مناطق العالم الإسلامي التي تختلف في منظومتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية عن فرنسا الثورة.

ومن أجل إنجاح سياسته ارتأى بونابرت إرساء قواعد علاقاتٍ وثيقةٍ مع البلدان العربية والإسلامية، واعتمد في ذلك على الأسلوب الدبلوماسي لإقناع حكامها بأن المكانة الدينية لمصر وطريق قوافل الحجاج تعد من بين أولويات سياسته، وسيعمل على المحافظة عليها وتوفير الأمن والطمأنينة لهم.

وفي هذا الصدد كتب بونابرت رسالة إلى شريف مكة غالب بن مساعد بعد مرور شهر على استيلائه على القاهرة لإحاطته بهذه الأخبار، وإبراز "سياسته الإسلامية" تجاه المدينتين المقدستين والحجاج. وقد جاء في رسالته ما يأتي : "إنني إذ أخطركم - يقول بونابرت لشريف مكة - بدخول الجيش الفرنسي مصر أعتقد أنه من الواجب أن أطمئنكم على عزمي الوطيد على أن أحمي بكل السبل رحلة الحجيج إلى مكة، وستظل كل المساجد وكل الأوقاف التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي. إننا أصدقاء للمسلمين ولعقيدة الرسول، ونحن راغبون في القيام بكل ما من شأنه أن يسركم، ويكون في صالح الدين، وإنني لأرغب في أن تعلنوا في كل

مكان أن قافلة الحج لن تعاني من أي توقف، ولن تخشى شيئا من الأعراب"(١٢).

وبغض النظر عن الأهداف المتوخاة من طرف نابليون، وصفة التحايل والخداع الكامنة في سياسته، كان من طبيعة هذه الإجراءات أن تؤثر في الشعوب الإسلامية، وتجعلها تنظر بعين الرضى إلى الفرنسيين، وأن تستمر نظرتهم نفسها إليهم حتى بعد مغادرتهم لمصر، وهذا ما لحظه رحّالتنا باديا عند حديثه عن سكان مدينة جدة ومحاولتهم التودد إلى الفرنسيين.

## ٢- مكة المكرمة :

### أ- وصف المدينة :

في وصفه لمكة التي وصلها يوم ١٤ ذو القعدة ١٢٢١هـ / ٢٣ يناير ١٨٠٧م يقدم باديا صورتين : الصورة الأولى تهم الجانب الطبيعي والإداري للمدينة، من ناحية موقعها الجغرافي وطبوغرافيتها وجبالها ومناخها والسلطة الموجودة بها والحاكمة فيها وغير ذلك. والصورة الثانية تهم الجانب الديني لمكة حيث يصف جميع مرافقها الدينية من الكعبة وبئر زمزم والصفا والمروة وغيرها من أماكن العبادة التي يتم فيها تأدية مناسك الحج.

### - الجانب الطبيعي والإداري لمكة :

أول ما يستهل به وصف مكة هو تحديد موقعها الجغرافي من ناحية خطوط الطول والعرض؛ فموقعها حسب تقديراته في خطوط الطول هو ٣٧ - ٥٤ درجة، وفي خطوط العرض هو ٢١ - ٢٨ درجة (٣٧٩/٢).

---

(١٢) محمد زكريا عناني : (مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ونابليون) مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الحادية والعشرون: رجب/شعبان/رمضان، ١٤١٦هـ، ص ٧.

ثم بعد ذلك يصف موقعها الطبوغرافي قائلا : "تقع مدينة مكة في واد يبلغ معدل عرضه مئة وخمسة وخمسين قامة، على خط ملتو يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بين الجبال. وبالتالي فإن المدينة التي تتبع التواءات الوادي وتأخذ شكلا غير منظم؛ كما أن المنازل المبنية على مساحة الوادي وعلى منحدر الجبال تسهم في هذا الشكل. وتمثل اللوحة رقم ٦٢ ( LXII) مخطط مكة؛ إذ رسمت كل الطرق الرئيسة، غير أنني لم أدرج بعض الأزقة الصغيرة نظرا لضيق الوقت" (٢/٣٨٠)(١٣).

وفي هذا الوصف يتكلم باديا في موضع آخر على مناخ مكة؛ فيصفه بأنه مناخ لاهب ومحرق، ولا يرجع سبب ذلك فقط إلى خطوط العرض، ولكن بالأخص إلى الموقع الجغرافي للمدينة التي تقع وسط الجبال، فيشبهها بقوله : "إنها مقلاة تحت الفرن العاكس للحرارة" (٢/٤١٠). ونتيجة لهذا المناخ الحار يقول باديا : "إن الجو دائما في مكة يكون جافا. وطول مقامي بها لاحظت أن الرياح تهب دائما من الجنوب الغربي... والسماء تكون بالتعاقب صافية وغائمة كما في البلاد المعتدلة؛ غير أنني لم ألاحظ تقلبات مفاجئة في درجات الحرارة والرطوبة كما لاحظتها في مدينة جدة" (٢/٤١٢).

ومن عواقب هذا المناخ يصف لنا ظاهرة الجفاف والقحط بمكة قائلا :" نتيجة لهذا القحط السائد بهذه البلدة، لا يمكن العثور تقريبا على أية نباتات حول المدينة أو في الجبال المحيطة بها... فلا يمكن العثور في مكة على أي شكل من الحدائق أو المراعي الخضراء، وإنما فقط الرمل والأحجار التي تجود بها الطبيعة لسكان هذا البلد؛ كما لا يتمكن هؤلاء من زرع أية حبوب نظرا للأرض القاحلة التي لا تستجيب لمتطلبات الفلاحة " (٢/٤٠٩).

---

(١٣) فيما يخص هذا الرسم انظر اللوحة في الملحق.

إضافة إلى هذه العناصر المكونة للجانب الطبيعي يتحدث باديا عن جبال مكة، من ناحية تكوينها الجيولوجي والمعدني ومن ناحية طبوغرافيتها كذلك، وفي هذا الصدد يقول: "تتكون جبال مكة من نضيد بلّوري مع بعض الفتحات أو الأحجار ذات الشكل القرني. وكل شيء في هذا البلد هو عبارة أو نتيجة للبلّور، فالرمل ما هو إلا بقايا البلّور أو الكوارتز، وكذلك الأحجار الأخرى التي تتشكل في مختلف الجبال، ما هي إلا طبقات تكونت بالصدفة، ويبقى البلّور أو الكوارتز هو المكون والقاعدة الأساسية لها.

وقلب المدينة الذي تتوسطه الكعبة محاط بأربعة جبال أساسية هي : جبل أبي قبيس في الشرق، وجبل أجياد في الجنوب، وجبل عمر في الغرب، وجبل هندي في الشمال " (٢/٤٢٣-٤٢٤).

وعلى هامش هذا الوصف الطبيعي لمكة يتطرق الرحالة باديا إلى وصف المنازل والدور الموجودة بالمدينة. وفي هذا الجانب يقدم لنا صورتين متناقضتين؛ الأولى يقول فيها ما يأتي : "غرف المنازل المخصصة للسكنى جدّ متناسقة في طولها وعرضها وارتفاعها. وعلاوةً على الشبابيك الكبيرة والشرف، فإنها تتوفر على صف ثان من النوافذ صغيرة الحجم، كما يحيط بالغرفة رفّ عبارة عن مستودع لأغراض مختلفة.

وجمال هذه المنازل يشهد على الإشراق والأبهة القديمة لمكة؛ والسكان لهم مصالح كبيرة في الحفاظ على رونقها لجلب الحجاج؛ لأن مدخول الكراء هو أحد المصادر الأساسية المكونة لمعيشتهم" (٢/٣٨٤).

والصورة الثانية القاتمة يقدمها لنا في موضع آخر إذ يقول : "ما يناهز على ثلثي منازل مكة تجدها خاوية، والجزء الكبير من الأخرى التي يقطنها الناس تجد داخلها منهارًا رغم متانة بنائها. أما

يختتم قوله بتشاؤم كبير يعبر عنه بقوله : "إذا استمرت الحالة على هذا المنوال، فإنه في غضون قرن واحد سوف تتقلص المدينة إلى عُشر ما هي موجودة عليه حاليا"

واجهاتها فتظهر في حالة جيدة، وذلك من أجل جلب الحجاج. ورغم ذلك فإنه نظرا لعدم الاعتناء والإصلاح الجيد فإن هذه المنازل تنهار، ولا تشيد أخرى جديدة في محلها؛ لأنني لم أر في المدينة أيّ بناء جديد عدا واحدًا ما زال في طور الإنجاز بطريقة بطيئة جدا"، ويختتم قوله بتشاؤم كبير يعبر عنه بقوله : "إذا استمرت الحالة على هذا المنوال، فإنه في غضون قرن واحد سوف تتقلص المدينة (مكة المكرمة) إلى عُشر ما هي موجودة عليه حاليا" (٢/٣٩٧-٣٩٨)<sup>(١٤)</sup>.

## النظام الإداري والسياسي :

وإذا تساءلنا عن نظام الإدارة بمدينة مكة والحكم السياسي فيها، فإننا نجد باديا قد ركّز بصفة أساسية على شخصية شريف مكة الذي التقاه في منزله. وأجرى معه شريف مكة حوارا حول هويته وأوضاع أوربا، ومن خلال هذا الحوار استطاع باديا أن يكسب ثقة شريف مكة ونقيب الأشراف، أي الشخصيات الحاكمة والفاعلة في مدينة مكة. وبعد ذلك يتعرض باديا لوصف شخصية الشريف غالب بقوله : " يظهر لي أن الشريف يبلغ سنه ستة وثلاثين إلى أربعين سنة؛ عيناه كبيرتان وجميلتان، ذو لحية عادية وبدانة ظاهرة، ومع ذلك يتوفر على نشاط وحيوية، لباسه يتكون من قفطان خارجي، وآخر داخلي مشدود في وسطه بشال أو خمار كشميري، وشال آخر من

---

(١٤) إنه عبر مختلف العصور والأزمنة كانت المساكن في مكة أكثر من حاجة السكان، ولا يرجع ذلك لقلة السكان بل لحاجة المدينة إلى هذه المساكن في مواسم الحج، ولا تزال حتى الآن أقسام كبيرة جدا من بيوت مكة فارغة، ولا تستعمل إلا مدة قصيرة أثناء موسم الحج، فانعدام إشغال البناء في مكة لا يعني أن سكان مكة في تناقص، ويظهر أن باديا أخذ هذا الانطباع الخاطئ نظرا لمكوثه القصير في مكة، والدليل على ذلك أن توقعه في تقلص عدد السكان ونقصانهم لم يتحقق.

النوع نفسه يستعمله كعمامة، كانت له وسادة كبيرة من ورائه، وأخرى بجانبه، وثالثة أصغر إلى حد ما أمامه يتوكأ عليها مرارا" (٢/٣١٤-٣١٥).

أما عن الوضع السياسي في مكة فإن باديا عندما زار منطقة الحجاز كان الإمام سعود يعمل على تثبيت دعائم حكمه في الجزيرة العربية؛ ولذلك نجد باديا يتكلم عن مرحلتين في النظام السياسي الذي عرفته مكة خلال هذه الفترة التي أمضاها فيها؛ فعن المرحلة الأولى يقول : "عند وصولي كانت السلطة في مكة بيد الشريف الذي يعترف بالسلطان العثماني في القسطنطينية، ويخضع لتبعيته... والسلطان العثماني يرسل الباشا الحاكم إلى جدة، غير أن الأخير يقضي جل وقته مع شريف مكة دون أن يمارس أدنى سلطة.

كما أن السلطان يرسل على رأس كل سنة القضاة إلى مكة وجدة والمدينة لممارسة القضاء، غير أنه لم يكن في استطاعتهم التدخل في الشؤون الإدارية التي تبقى حكرا على الشريف الذي يتفرد في الحكم كسلطان مستقل بواسطة أعوانه" (٢/٤٣٢).

وقبل التطرق إلى المرحلة السياسية الثانية التي يتحدث عنها باديا، لا بد من تسجيل ملاحظة تتمثل في الخطأ الذي وقع فيه رحالتنا بخلط بين الأحكام التي هي من اختصاص القاضي، والأحكام التي هي من اختصاص الحاكم الذي هو الشريف غالب؛ فالقاضي كان يحكم فقط في القضايا الشرعية المرتبطة بالمسائل الشخصية من نكاح وطلاق وبيوع وسائر العقود والالتزامات والمعاملات المالية؛ على حين أن الشريف غالب كان بيده السلطة السياسية والإدارية التي هي من غير اختصاص القاضي.

وفيما يخص المرحلة الثانية من الحكم السياسي الذي عرفته مكة ومنطقة الحجاز، فإن باديا يبتدئ الكلام عنها بقوله : "في ٢٦

فبراير ١٨٠٧م، وبأمر من الإمام سعود، تم الإعلان في كل المواقع والأماكن العامة بأنه في الغد بعد الظهر ينبغي على كل الجنود الأتراك والمغاربة التابعين للشريف أن يغادروا مكة، ويذهبوا خارج الجزيرة العربية، وكذلك الباشا العثماني لجدة. كما تم نزع سلاح الشريف والقضاء على سلطته، وتحولت السلطة القضائية للسعوديين" (٢/٤٣٤). ويزيد في توضيح هذه الأحداث والتغييرات السياسية بقوله: "وفي ليلة ٢٦ و٢٧ فبراير غادر كل الجنود الأتراك مدينة جدة... وفي الليلة التالية تحول مئتان وخمسون من الجنود الزنج لخدمة الإمام سعود. كما غادروا كلهم البلاد يوم ٢٨، فاتجه الإمام سعود نحو المدينة برفقة جنوده لترسيم قضاته... وهكذا انتهت هذه الثورة السياسية دون إراقة الدماء" (٢/٤٣٥).

**- وصف المرافق الدينية لمكة:**

اهتم الفصل السادس عشر من كتاب باديا بكل المرافق الدينية الموجودة في بيت الله، والتي تشكل الأماكن الأساسية لأداء مناسك الحج بداية من الكعبة ومقام إبراهيم، ونهاية بالصفا والمروة، وأعطى لها وصفا دقيقا من ناحية الموقع والشكل والمقاييس والتفسيرات الدينية المرتبطة بها. كما تطرق للكلام على أبواب الحرم وخصوصا باب السلام، ووصف ساحة الكعبة ومنبر خطبة الجمعة والأعمدة النحاسية والقناديل الموجودة في المسجد، ولم يغفل حتى الحديث عن طيور الحمام التي تملأ سماء الكعبة.

**الكعبة:**

فيما يخص حديثه عن الكعبة تطرق باديا إلى الوصف الدقيق للمظهر الخارجي والداخلي لها؛ فعن الوصف الخارجي يقول: "الكعبة أو بيت الله هي عبارة عن صرح رباعي الشكل غير متساو في أضلاعه وزواياه؛ بني على شكل مربع منحرف، غير أن ارتفاع مبناه

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، السنة الثامنة والعشرون
الدارة

والنسيج الأسود الذي يغطيه يخفيان هذا التفاوت، ويمنحانه هيئة مربع حقيقي" (٣٤٥/٢).

ثم انتقل إلى وصف نوعية الصخور المكونة لبناء الكعبة، كما حاول التدقيق في مقاييس الكعبة من ناحية أضلاعها وارتفاعها واتجاهاتها. ثم تطرق إلى وصف الحجر الأسود ونوعه ومقاييسه غير ناسٍ التفسير الديني المرتبط بهذا الحجر.

أما المظهر الداخلي للكعبة فقد تطرق إلى الوصف الدقيق له إذ يقول : "في الجزء الداخلي للكعبة نجد قاعة واحدة، في وسطها عمودين، قطر كل واحد قدمين(*) (ما يناهز ٦٥ سنتم) يحملان السقف الذي لم أستطع معاينة شكله؛ لأنه مغطى بنسيج رفيع يغطي الجدران والأعمدة من فوق إلى علوّ خمسة أقدام من الأرض". ويسترسل في وصف الكسوة الداخلية للكعبة قائلا :" هذا النسيج هو من الحرير الوردي مرصع بورود منسوجة من الفضة، ومبطّن بنسيج آخر أبيض. ولا يمكن تبديل هذا النسيج إلا بعد وصول خليفة عثماني جديد إلى الحكم، وهو الذي يقوم بتغييره وإرسال نسيج جديد بديل له" (٣٤٩/٢).

أما الكسوة الخارجية للكعبة فيقول عنها باديا : "إن بيت الله مغطى بأكمله من الخارج بنسيج أسود يسمى "ثوب الكعبة"، معلق في السطح، ومثبت في الأسفل بوّاسطة حبالٍ مربوطة في خواًتيم نحاسيةٍ موضوعةٍ حول القاعدة. وفي كل سنة يٍجدد هذا الثوب حيث يؤتى به من القاهرة. ومن هذه المدينة كذلك يرسل الستار الرفيع المطرز بالذهب والفضة والمخصص لغطاء باب الكعبة. وعند ثلثي ارتفاع ثوب الكعبة نجد رباطا يدعى : الحزام، مطرز بالذهب، وعليه

---

(*) هكذا في الأصل والصواب : «في وسطها عمودان، قطر كل واحد قدمان». (المحرر).

كتابات تتكرر في كل الجوانب الأربعة. ويتم تغيير الثوب الجديد في كل سنة، وأثناء ذلك لا يرسل كليا بل يرفع أسفله في احتفال موكبي، ويظل معلقا بالسطح" (٢/٣٥١)(١٥).

**مقام إبراهيم :**

ثم بعد ذلك ينتقل الرحالة باديا إلى وصف مقام إبراهيم، وموضعه، وشكله، وإعطاء مقاييسه، فيقول في ذلك :" مقام إبراهيم هو عبارة عن صورة مهد متوازي الأضلاع أمام وسط الحائط الموجود فيه باب الكعبة، ويبعد عنه بنحو أربعة وثلاثين قدما (ما يعادل: ١١ مترا و٢٢ سم). طوله اثنا عشر قدما وتسع بوصات (ما يعادل: ٤ أمتار و٢٠ سم)، وعرضه سبعة أقدام وثماني بوصات (تعادل مترين و٥٢ سم)، وسقفه مدعم بستة أعمدة تفوق تقريبا قامة الرجل" (٢/٣٥٥).

**بئر زمزم :**

أما بئر زمزم فقد وصف باديا شكله، وكيفية جلب الماء من البئر، وحدد موقعه، وبصفة عامة رسم لنا لوحة عن شكله في مطلع القرن التاسع عشر، يقول عنها : "يقع بئر زمزم على بعد خمسين قدما ونصف (ما يعادل: ١٦ مترا و٦٧ سنتم) من الجهة الشرقية للحجر الأسود. قطره يناهز سبعة أقدام وثماني بوصات، وعمقه ستة وخمسون قدما حتى سطح الماء (تعادل: ١٨ مترا و٤٨ سنتم)، مثابته من الرخام الأبيض الرفيع والجيد" (٢/٣٥٦)(١٦).

**الصفا والمروة :**

وعند حديثه عن الصفا والمروة يحدد موقع كل منها، ويصف الشكل الذي كانت عليه في هذه الفترة؛ فعن الصفا يقول: "تقع

---

(١٥) انظر الملحق : اللوحة رقم : LVI (56).

(١٦) انظر الملحق : اللوحة رقم : LVII (57).

الصفا في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد، أمام الباب الذي يحمل اسم: باب الصفا وفي أسفل الجبل المسمى جبل (أبو قبيس)... وعند نهاية طريق قصيرة وواسعة تصل إلى تل الصفا، حيث يوجد رواق مكون من ثلاثة أقواس مدعم بثلاثة أعمدة ضخمة، نصعد إليه عبر أربع درجات، وهو الموضع الذي يرتل فيه الحاج الدعوات الخاصة بالصفا" (٢/٣٧٣)(١٧).

أما المروة فيقول عنها : "تبعد شيئا ما عن المسجد من الجهة الشمالية، وعند نهاية الطريق التي تصل إلى المروة، يوجد رصيف يبلغ خمسة وعشرين إلى ثلاثين قدما مربعا (تعادل ٨ أمتار) يحيط به من ثلاث جهات حائط كبير، وهو الموضع الذي يقرأ فيه الحاج دعوات المروة" (٢/٣٧٣)(١٨).

وكما ذكرنا سالفا فإن الرحالة باديا وصف جميع المرافق الدينية الموجودة في الحرم المكي، وفي صفحة (٣٧١) من كتابه نجد جردا كاملا لأبواب الحرم من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية؛ غير أنه خص بالحديث والوصف باب السلام فوصف شكله وحدد موقعه ومقاييسه (٢/٣٦١).

### ب - الحياة الدينية في مكة :

الصفحات التي خصها باديا في كتابه للحديث عن مناسك الحج في مكة هي الأكثر إثارة؛ فقد وصف جميع المناسك، انطلاقا من الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، ومرورا بوصف الطريق إلى منى ومزدلفة ومناسك الحج في عرفات ورمي الجمار.

ومن هذه الصفحات نستخرج موضوعين تطرق إليهما الرحالة، وركز عليهما في متن رحلته؛ يعبر الأول عن الثقة التي اكتسبها باديا

---

(١٧) انظر الملحق : اللوحة رقم : LX (60).

(١٨) انظر الملحق : اللوحة رقم : LXI (61).

لدى الأوساط الحاكمة في مكة، مكّنته من الولوج إلى داخل الكعبة والمشاركة في تطهيرها وإحرامها. ويعبر الموضوع الثاني عن مشاعره، وهو يؤدي مناسك الحج في عرفات. ونظرا لأهمية الموضوعين ندرجهما بتفاصيلهما كما عبر عنهما باديا.

فعن غسل الكعبة يرسم لنا اللوحة الآتية بقوله : "في يوم الاثنين ٢٩ يناير (١٨٠٧م)، ٢٠ من شهر ذي القعدة (١٢٢١هـ) تمّ غسل الكعبة حسب المراسم الآتية : بعد ساعتين من شروق الشمس وصل الشريف (غالب) إلى الكعبة مصحوبا بثلاثين شخصية واثني عشر حارسًا : قسم من الزنوج، وقسم من العرب، وكان باب الكعبة قد فتح من قبل، وأحاط به حشد كبير من الناس إلا أن السلالم لم يتم وضعها بعد.

وبعد أن تسلق الشريف أكتاف بعضهم ورؤوس الآخرين، ولج إلى داخل الكعبة مع رؤساء القبائل الرئيسة وأراد الآخرون القيام بالشيء نفسه إلا أن الحراس الزنوج منعوهم من الدخول بضربهم بالعصي والقصب. أما أنا فقد مكثت بعيدا عن الباب حتى أتجنب هذا الحشد الهائل، غير أن رئيس الزمازمة بعدما تلقى أوامر الشريف أشار إلي لكي أتقدم، ولكن كيف أستطيع اختراق آلاف الأشخاص الموجودين أمامي؟

كل الزمازمة في مكة تقدموا بقربهم المملوءة، وأخذوا يمررونها من يد إلى أخرى حتى تصل إلى حراس باب الكعبة الزنوج، كما فعلوا الشيء نفسه بعدد كبير من المكانس الصغيرة المكونة من أوراق النخيل.

فأخذ الزنوج يلقون الماء على أرض الحجرة المبلطة بالرخام، وكذلك ماء الورد. وعن طريق ثقب موجود في عتبة الباب يسيل هذا الماء، فيجمعه المؤمنون بكل لهفة. ونظرا لعدم كفاية الماء

أمام هذه اللهفة الكبيرة والحشود الأخرى التي كانت ترفع صوتها طالبة قدرا من هذا الماء للشرب أو الاستحمام، فقد أخذ الحراس الزنوج يلقون الماء بوفرة على هذه الجموع إما بواسطة الأقداح أو بأيديهم. وقد أوصلوا لي جرّةً صغيرةً وقدحا، فشربت ما استطعت، وأفرغت الباقي على بدني؛ لأن هذا الماء رغم أنه وسخ جدا إلا أن فيه نعمة ربانية، بالإضافة إلى أنه معطر بماء الورد. بعد ذلك بذلت جهدا للاقتراب، فحملني عدة أشخاص على رؤوسهم حتى وصلت إلى الباب، فساعدني الحراس الزنوج على الدخول.

في الداخل وجدت الشريف (غالب) يكنس بنفسه الحجرة، ومباشرة بعد دخولي خلع لي الحراس عباءتي، وقدموا لي رزمة من المكانس الصغيرة، فأخذت بعضها في كل يد، وفي اللحظة نفسها ألقوا كثيرا من الماء على البلاط، وبدأت أكنس الأرض بكل إيمان رغم أنها كانت نظيفة، وتلمع كالمرآة. وأثناء هذه العملية كان الشريف يؤدي الصلاة بعد انتهائه من الكنس وتطييب الكعبة.

بعد ذلك أعطوني كأسًا فضيًا مملوءًا بعجينة مصنوعة من نشارة خشب الصندل، ومدلكة بعطر الورد، فنشرت هذه العجينة على القسم الأسفل من الحائط المغشى بالرخام، ثم أعطوني قطعة من خشب العود الذي أحرقته في موقد كبير حتى تتعطر الحجرة، بعدها ناداني الشريف بـ"خادم بيت الله الحرام"، وتلقيت التهاني من كل الحاضرين" (٢/٣١٦-٣١٨).

أما النقطة الثانية التي يتحدث فيها عن مناسك الحج بجبل عرفات، فقد ترك الحماسة تغزوه في هذا الوصف، وفاضت مشاعره، وتجاوز الدور الذي يمثله، فوصف هذه المناسك بقوله : "على جبل عرفات فحسب يمكن أن تتصور فكرة المشهد العظيم الذي يقدمه الحج للمسلمين : جماهير غفيرة، من كل الشعوب

والأمم والألوان، جاؤوا من أقصى أنحاء المعمورة متجاوزين آلاف المخاطر والمتاعب، ومعاناةً لا حد لها، لكي يعبدوا الله الواحد معا؛ سكان القوقاز يمدون يد الصداقة إلى الحبشي أو الزنجي من غينيا، والهندي والفارسي يتآخيان مع البربري والمغربي، يتلاقون جميعا كأنهم إخوة، أو أفراد من العائلة نفسها، توحد بينهم رابطة الدين، وتتحدث أغلبيتهم أو على الأقل يتفاهمون باللغة العربية المقدسة، وليست هناك عبادة مثل الحج تقدم للحواس مشهدا أكثر روعة، وأقوى تأثيرا، وأسمى جلالا ... وهنا لا توجد طبقة وسيطة بين العبد وخالقه، ولا طبقة متميزة عن الأخرى؛ الناس جميعا سواسية أمام الله، والجميع يدرك أن عملهم هو الذي يقربهم إلى الخالق أو يبعدهم عنه، ولن تستطيع أية قوة مهما كانت أن تغير هذه السنة الإلهية" (٢/٣٣٠-٣٣٢).

وعلى هامش هذا الوصف الديني لم ينس باديا وصف جبل عرفات من حيث شكله وتكوينه الجيولوجي، فيقول : "جبل عرفات هو عبارة عن صخرة من الجرانيت كباقي الجبال المجاورة له، ارتفاعه يناهز مئة وخمسين قدما (تعادل: ٥٠ مترا)، ويقع عند أسفل جبل أكثر ارتفاعا في الجهة الجنوبية الشرقية من هضبة(١٩). يتم الصعود إليه عبر أدراج، قسم منها منحوت في الحجر، وقسم آخر مبني" (٢/٣٣٢)(٢٠).

### التجديد لدى الحركة الإصلاحية :

قبل إنهاء هذا العنصر الخاص بالحياة الدينية، تجدر الإشارة إلى أن باديا قد تعرض في كتابه للحديث عن الحركة الإصلاحية والدولة السعودية ومبادئهما الدينية، والحملات العسكرية التي قاموا

---

(١٩) انظر الملحق : اللوحة رقم : XLIX (49).

(٢٠) انظر الملحق : اللوحة رقم : LII (52).

بها والإصلاحات الدينية التي جاؤوا بها، معتمدا في ذلك كما صرح نفسه على مصدرين : أولا الرواية الشفوية من طرف بعض السعوديين أنفسهم ومن بعض سكان البلاد، وثانيا الملحوظات التي أدرجها من خلال الأحداث التي كان شاهدا عليها.

فحسب باديا أن تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه قضت على الزنادقة والسحرة والمهرجانات الدينية التي كانت تسهم ماديا في رفاهية سكان مكة والمدينة، والسعوديون في رأي باديا لا يرفضون استخدام المسبحة والتدخين وزيارة الأولياء فحسب، وإنما هدموا المقابر والأضرحة والمساجد التي أقيمت تشريفا لهم، ويمنعون أيضا تقديس شخص النبي ﷺ (٢/٤٤٤)، وهذا غير دقيق؛ لأن ما قامت عليه الحركة الإصلاحية هو أساسًا ما كان عليه السلف الصالح من محاربة البدع وتقديس الآخرين.

وعندما كان يؤدي مناسك الحج في مكة صادف مجيء طائفة من السعوديين للقيام بفريضة الحج، وكانوا حليقي الرؤوس، شبه عراة، مسلحين، ولكن ما أن أتيحت الفرصة لباديا كي يتصل بهم ويتعرف عليهم حتى اكتشف فيهم مجموعةً من الفضائل والصفات الطيبة، أعظم مما وجده عند بقية العرب، نتركه يسجل ذلك بنفسه قائلا : "لا يسرقون أبدا، سواء بالقوة أو عن طريق الخديعة، أوفياء لرؤسائهم، يتحملون كل ألوان المعاناة، ويتابعون قادتهم ولو إلى نهاية العالم، لا يتراجعون أمام أي خطر أو صعوبة" (٢/٣٢٤).

ولكنه يرى بعد أن تأمل مواقفهم وعقيدتهم جيدا أن مثلهم الأعلى الديني والاجتماعي سوف يجد معارضةً قويةً تحول دون انتشاره في المناطق الأكثر غنى وتقدما، لتشدده وصرامته، واصطدامه مع العادات والتقاليد التي دأبت عليها الشعوب الإسلامية الأخرى، ويقول في هذا الصدد ما يأتي : "إذا لم يخفف (السعوديون)

قليلا من شدتهم في المبادئ التي يؤمنون بها، فيبدو لي أنه من المستحيل أن تنتشر الوهابية في بلاد أخرى أبعد من هذه الصحراء" (٤٤٠/٢).

**ج - الحياة الاقتصادية في مكة:**

تتنوع قيمة المعلومات التي أوردها باديا حول الحياة الاقتصادية في مكة من نشاط لآخر.

**الفلاحة:**

في الميدان الفلاحي إذا استثنينا التفاصيل التي ذكرها باديا حول المناخ من رياح وحرارة، تبقى معلوماته في هذا الميدان على الشكل الآتي :

**الثروة الزراعية:**

ويمكن تلخيصها في الأقوات والمعيشة التي تتوافر في أسواق مكة. وقد قال عنها باديا : "ثمنها مرتفع ما عدا لحم الخروف... الدواجن قليلة وبالتالي البيض. يستورد القمح، أو بالأحرى الدقيق من مصر، والخضر والأرز من الهند، ونأتي بالخضر من مدينة الطائف، وكذلك قليل من القمح تنقص جودته عن الذي يأتي من مصر. أما الزبدة التي نحفظها في القرب والأوعية فهي تشبه نظيرتها في كل البلاد، غير أنه نظرًا للحرارة المرتفعة فإنها دائما تكون مذابة على شكل زيت" (٣٨٥/٢). كما يشير إلى أثمان السلع، وفي هذا الصدد يعطينا لائحة حول بعض هذه السلع وأثمانها في الفترة التي كان موجودا فيها في مكة (٣٨٥/٢-٣٨٦).

وفي موضع آخر يتكلم عن اللحم وبعض المواد الغذائية والخضر الأخرى بقوله :" إن اللحم الذي نأكله في مكة ذو قيمة ناقصة؛ فرغم أن الخرفان كبيرة إلا أنها ضعيفة. ولا يوجد تقريبا السمك رغم أن البحر لا يبعد كثيرا عن مكة. أما الخضر التي نأتي بها من الطائف ومن بعض المواضع القريبة، فتشمل البصل واللفت والخيار والبقول

وزهرة الكَبَـر(*) وشكل من السلاطة لها أوراق تسمى الكرات" (٣٨٨/٢).

والماء الموجود في مكة - إلى جانب ماء زمزم - يقول عنه : "الماء العذب الذي يجلب باستمرار من الجبال القريبة ومن منى على ظهر الجمال ذو جودةٍ عالية، وماء الآبار رغم أنه أجاج شيئا ما وثقيل، إلا أنه صالح للشربِ كماء زمزم" (٣٨٧/٢).

## الثروة الحيوانية :

أما الثروة الحيوانية التي وقف عليها باديا في مكة فتتمثل بالخصوص في الخيول والحمير والجمال؛ فعن الأولى ينفي وجود الخيول العربية الأصيلة، إلا القليل منها في حوزة شريف مكة وبعض الخواص. وما عدا هذه الخيول التي وصفها بالقوة والسرعة والجمال فيتكلم عن الأخرى التي رآها بقوله :" هي بشعة في منظرها وغليظة" (٤١٨/٢)، ولم يفته أن يشير إلى المعاملة القاسية التي تتعرض لها من قبل ركابها :"الذين يستعملون شكيمةً صلبةً جدا، مما يسبب نزيفا في أفواه هذه الحيوانات". ويرجع سبب قلة الخيول في مكة إلى المناخ الصحراوي القاسي وجفاف الطبيعة. (٤١٨/٢). أما الحمير فعلى الرغم من قلتها في مكة فقد لحظ باديا جودتها (٤١٩/٢).

والملحوظ أن رحالتنا أولى اهتماما خاصا بالجمال، ويرجع ذلك إلى كثرتها في مكة كباقي أنحاء الجزيرة العربية نظرًا لطبيعة المناخ. وعن هذا الحيوان يستعمل تعبيرا خاصا بقوله:" الجمل، وهو الحيوان الوحيد الصالح للصحراء، يعد هبةً إلهيةً للسكان، وللذين يسافرون في هذه المناطق المحرقة بحرارتها"، ومن ثم يتساءل عن مصير الجزيرة العربية لولا وجود هذه الثروة الحيوانية ؟ كما يتساءل عن

---

(*) الكَبَر: هو شجر الأَصَف، وفي العامية يقال له : القَبّار، وهو نبات له شوك، وزهرته تكبس في الخل، وتستعمل في الأطعمة.

أية قوة بشرية تستطيع تحمل العدد الهائل من الحجاج عند ذهابهم لجبل عرفات، لولا المساعدة التي تقدمها هذه الحيوانات الغالية؟ (٤١٩/٢). وبعد ذلك يشير إلى المعاملة الحسنة التي يعامل بها الجمال من طرف أصحابها، غير أن هؤلاء في نظره يستغلونها إلى آخر رمق حتى تموت بهذا العبء (٤٢٠/٢).

وإلى جانب هذه الثروة الحيوانية الممثلة في الخيول والحمير والجمال، يذكر باديا وجود نوع ممتاز من الأبقار في مكة : "لا يوجد في رأسها أي قرن، على ظهرها سنام، تصلح للركوب وحمل الأثقال، وتستطيع السفر بسرعة وخفة، كما أنها تجود بلبن وافر" (٤٢٠/٢).

كما لحظ وجود أبقار وعجول صغيرة الحجم، شبيهة بالتي رآها بالمغرب، كما يذكر وجود نوعٍ من الماعز: "جميلة الشكل، وكبيرةٍ شيئًا ما في حجمها" (٤٢١/٢).

### التجارة :

سبق الإشارة إلى أن باديا لحظ أن مكة تقع وسط الصحراء، فأرغمها ذلك منذ أزمان سحيقة على أن تفرض نفسها بقوة العقيدة الدينية. وأهلها يعيشون بالخصوص من الأموال التي يحصلون عليها خلال أشهر الحج، مما يسمح لهم بأن يعيشوا منها بقية العام. فإلى جانب هذا الرواج التجاري الذي تعرفه مكة لوقتٍ معين، ذكر باديا وجود أنشطةٍ أخرى بالمدينة.

### الأسواق العمومية :

عن هذه الأنشطة يقول : "في مكة لا توجد أماكن خاصة بالأسواق العمومية، فهذه الأخيرة تقام على طول الشوارع الرئيسة، ويمكن القول: إن الشارع الرئيس وسط المدينة هو عبارة عن سوق دائم يمتد من طرف المدينة إلى الطرف الآخر، يقف بعض الباعة في أكواخٍ مصنوعة من العصي والحصير المنسوج من القصب، وآخرون

يقفون تحت نوع من المظلات الكبيرة المدعمة بثلاثة عصي تجتمع في وسطها" (٢/٣٨٤). وعن كيفية تزويد هذه الأسواق ونوعية الأنشطة الموجودة فيها يقول باديا : "هذه الأسواق مزودةٌ جيدًا بما تحتاجه من أقوات، ومن كل نوع من السلع الضخمة تكون غاصةً بالجماهير في كل أوقات النهار، وبالأخص عند موسم الحج. وإلى جانب ذلك نجد أصحاب المطاعم وأصحاب الحلويات، بالإضافة إلى مبيّضي القصدير والإسكافيين وبعض الحرفيين والصناع" (٢/٣٨٥).

وفي موضع آخر يقول: "نجد كذلك في هذه الأسواق كل المنتوجات الطبيعية والصناعية المستوردة من الهند ومن إيران، ويضيف : كان بجانب مسكني صفان من المحلات مختصة ببيع أنواع العطور" (٢/٣٨٦-٣٨٧).

**الحرف والأعمال :**

إلى جانب بعض الحرف التي ذكرها باديا آنفا، فإنه ينفي وجود صناع في مكة قادرين على صنع أقفال أو أن يطرقوا مفتاحا : "فكل الأبواب مقفولة بمفاتيح بدائية من الخشب، وكذلك الصناديق المستوردة من أوربا" (٢/٣٨٩).

أما الأخفاف فإنها تستورد من القسطنطينية ومن مصر: "لأنه في مكة لا يصنع إلا النعال من الخشب أو الجلد غير المدبوغ" (٢/٣٩٠). كما ينفي باديا وجود صناع للأسلحة في مكة قادرين على صنع لولب أو تبديل قطعة من البلاتين لبندقية أوربية؛ فصناع الأسلحة الذين وقف عليهم في مكة : "لا يعرفون إلا صنع البنادق البدائية ذات الفتيلة، والسكاكين المقوسة، والرماح المستعملة في هذه البلاد"، ويسترسل في وصف ورشهم وكيفية عملهم بقوله : " أما عن محلات عملهم فإنهم يقيمونها لحظة وجودهم في مكان معين. أما أدواتهم فهي عبارة عن ثقبٍ يحفرونه في الأرض ليتخذوه فرنًا،

وواحدة أو اثنين من جلد الماعز يحركها الصانع أمام الموقد على شكل مكان للكير أو المنفاخ، واثنتان أو ثلاث من أوراق النخيل، وأربعة من العصي هي التي تستخدم على شكل جدران وسقفٍ للمحل الذي يغيرون مكانه كلما دعت الحاجة لذلك" (٢/٣٩٠).

كما يتحدث عن وجود : "مبيّضين للنحاس، إلا أن هذه الآنية تأتي من الخارج. كما يوجد صناع للصفيح يصنعون أنواعا من الأوعية التي يستعملها الحجاج لحمل مياه زمزم" (٢/٣٩١).

**المقاييس والمكاييل والنقود :**

سبقت الإشارة في أثناء التعريف بحياة باديا إلى أنه اشتغل منذ بداية حياته الوطنية في الجهاز المالي الذي أهله لكسب معرفةٍ بالمفاهيم المالية والحياة التجارية بصفة عامة. وبالفعل فقد وظف هذه المعرفة المالية في رصد مجموع جوانب النشاط التجاري، في كل بلد أو مدينة يزورها. وقد حظيت مدينة مكة بحديثه عن هذه الأنشطة ابتداءً من المقاييس والمكاييل وانتهاء بالنقود.

بخصوص المكاييل والمقاييس فقد أوضح أنها تشبه تلك الموجودة في مصر، غير أنه يذكر أنها غير دقيقة المقياس (٢/٣٨٦).

أما النقود فهي نفسها الموجودة في مصر، فيتحدث عن وجود : "العملة الإسبانية التي تصل قيمتها في العمليات التجارية إلى خمسة قروش تركية، أما عند الصرف فتساوي فقط أربعة قروش ونصفًا". أما الملحوظة الأساسية التي سجلها في هذا الميدان بمكة، فهي "وجود نقود كل البلدان، والصرافون الجالسون في الأسواق العمومية أمام مكتبهم، وبجانبهم ميزانٌ صغير، يشتغلون طول النهار في صرف وتبديل النقود" (٢/٣٨٦).

### المبادلات التجارية :

في هذا الجانب ذكر باديا أن التجارة في مكة تعتمد على القوافل التي تأتي أيام موسم الحج. وإلى جانب ذلك تتمثل هذه المبادلات في جلب السلع الأوربية من جدة التي تأتي عن طريق مصر والبحر الأحمر، ويسترسل باديا في ذكر هذه المبادلات قائلا: "ومن الميناء (جدة) نفسه، وتجلب إلى مكة كثيرٌ من المواد من الهند واليمن وخاصة البن، كما أن القوافل الآتية من دمشق والبصرة ومصر واليمن تحمل باقي المواد وتقوم بالمبادلات" (٢/٤٠٢-٤٠٣).

### د - الحياة الثقافية والاجتماعية في مكة :

### الميدان الثقافي :

في هذا العنصر سرعان ما نجد باديا ينسى دوره في مكة، ويعود أوربيًا عالمًا مثقفا، فيحمل حملةً رعناء على ميدان العلوم في مدينة مكة قائلا : "العلوم في مكة مفقودة ومنعدمة كالفنون، وكل ثقافة السكان تنحصر في قراءة القرآن وكتابته... ومنذ الصغر يتلقون مبادئ الصلاة وكيفية أداء مناسك الحج، حتى يتمكنوا في وقتٍ مبكر من كسب وربح الأموال في خدمتهم مرشدين للحجاج"، ويستدلُّ على كلامه بأنه رأى أطفالا صغارا يبلغون سن الخامسة أو السادسة يشتغلون في هذه الحرفة، يحملهم الحجاج على أكتافهم : "وهؤلاءِ - يعني الحجاج - يعيدون وراء الأطفال الأدعية التي يرتلونها كلمةً تلو الأخرى بصوت حاد، وفي الوقت نفسه يطلعون الحجاج على المناسك الأخرى، ويوجهونهم فيها " (٢/٣٩١).

وعند حديثه عن التعليم والقراءة يدشن كلامه بهجوم عنيف قائلا : "في مكة لا توجد مدارس منظمة سوى تلك التي يتعلم فيها القراءة والكتابة، وما سوى ذلك هناك بعض الفقهاءِ أو العلماء الذين يجلسون تحت أبواب الحرم حسب رغبتهم، أو رغبةً في الافتخار أو طمعًا في مكافأة، حيث يشرعون في التلاوة بأعلى أصواتهم لجلب

الناس حتى يتجمهروا حول أحدهم في حلقة، فيقوم هذا العالم بالشرح أو الدعاء حسب ما يستطيع، ويذهب ويعود متى شاء" (٣٩٢/٢).

وفي سياق هذه الحملة الرعناء يختتم قوله حول ميدان القراءة قائلا :" هذه هي أنواع ووسائل القراءة والتدريس التي نجدها في المدينة المقدسة... ولأجل ذلك نستخلص مما سبق أن سكان مكة يعيشون في جهالةٍ قاتمةٍ أكثر من غيرهم" (٣٩٢/٢).

**الميدان الاجتماعي :**

في هذا العنصر يرسم باديا لوحة أنثربولوجية عن سكان مكة؛ فيصف شكلهم، ويتكلم عن نساء الحواضر وشكلهن ولباسهن، وكذلك عن نساء البادية ولباسهن وطريقة عيشهن، ثم يتكلم بصفةٍ عامة عن لباس سكان المدينة وعن لباس البدو، كما يتعرض للحديث عن احتفالات الزواج ومراسيم دفن الأموات.

فعن سكان مكة يرسم صورةً بشعةً حول بنيتهم الجسمانية التي يصفها بالضعف والهزال. غير أنه في هذا الصدد نجده يخلط بين سكان البلد وخدام المسجد الحرام الذين شبههم بهياكل جسمية تسير (٣٩٦/٢). أما عدد سكان مكة فقد حدَث فيه - حسب تفسيراته - نقصٌ كبيرٌ عما كان عليه من قبل، ويقدره في هذه الفترة بما يناهز ستة عشر إلى سبعة عشر ألف نسمة (٣٩٧/٢).

ويستهل حديثه عن نساء مكة بقوله : "النساء في مكة ينعمن بالحرية أكثر من غيرهن في المدن الإسلامية الأخرى" (٣٩٩/٢). غير أنه لا يكشف لنا أين تتجلى مظاهر هذه الحرية، وإنما اقتصر على ذكر أسباب غير موضوعية لهذه الظاهرة، تنحصر في كون الفقر والبؤس الذي يعيش فيه السكان جعلهم لا يولون الاهتمام بالنساء.

وعن لباس النساء يعطي وصفًا تفصيليا، ويرسم لوحة عن مظهرهن في هذه الفترة؛ فجاء هذا الوصف على النحو الآتي : "تستر النساء وجوههن كما في مصر بقطعة من الثوب عليه فتحتان للأعين؛ وهذه الفتحات كبيرة لدرجة يمكن رؤية نصف وجوههن، وأغلب النساء تتركها مكشوفة، وكل النساء تلبس حجابا عليه خطوط زرقاء وبيضاء على الطول والعرض" (٣٩٩/٢-٤٠٠). وبعد انتهائه من وصف اللباس يعطي وصفًا لمظهرهن وجمالهن بصورة بشعة تبعث على الاشمئزاز (٤٠٠/٢).

ثم ينتقل للحديث عن النساء البدويات اللائي لم يعطنا وصفًا تفصيليًا عن لباسهن ومظهرهن، إلا ما اقتصر عليه في هذا الوصف بقوله :" النساء البدويات، وحتى اللائي يعتبرن من الفئة الغنية، ليس لهن من اللباس إلا قميص من ثوب أزرق، ويضعن ستارا على وجوههن، وحجابا كبيرا أسود من الصوف، وخواتم وأساور وبعض الحلي الأخرى" (٤٠٤/٢).

وبصفةٍ عامة فإن باديا عند حديثه عن نساء مكة، سواء منهن اللاتي تقطنَ الحاضرة أو البادية، يرسم لنا لوحةً أنثربولوجية يصف فيها اللباس والمظهر والعادات والتقاليد وطريقة العيش والمركز الاجتماعي الذي تحظى به النساء في المجتمع المكي.

ومن خلال هذا الوصف يخرج باستنتاج مفاده أن موقع مكة الجغرافي وسط الصحاري، وتدهور التجارة فيها بكونها لا تتوفر على موارد أخرى، كل ذلك أثر في الناحية الاجتماعية، وجعل السكان يعيشون في بؤس وشقاء، فيصف هذه الحالة بقوله : "كل السكان تقريبا لا يحصلون على لباس جيد، يعيشون تحت خيام أو أكواخ دون أثاث سوى قصعةٍ من الخشب، وفي بعض الأحيان قدر من المعدن وجرةٍ وأوعيةٍ موضوعة على الأرض، وحصيرٍ يستعملونَه كفراش،

ورحى من أجل طحن الحبوب، وقربةٍ أو اثنتين لتخزين الماء"، وبين هذه الفئات الاجتماعية الفقيرة لا ينفي باديا وجود فئةٍ محظوظةٍ يقول عنها : "ومع ذلك نجد بينهم شخصياتٍ غنيةً في ملبسها الذي يتكون من أثواب الهند، وأخمرةٍ كشميريةٍ أو إيرانية" (٢/٤٠٣).

وفي وصفه المطول للسكان وحالتهم الاجتماعية يسجل باديا ملاحظة تكمن في التسليح العام للسكان، ما عدا خدام المسجد الحرام وبعض التجار، فإن : "كل السكان تجدهم دائما مسلحين، والأسلحة المتداولة بينهم تتمثل في الخنجر والرماح الطويلة والحربة والهراوة، ونلاحظ وجود البنادق إلا أن عددها قليل جدا" (٢/٤٠٧)، وهذه الأسلحة يضع لها باديا وصفًا دقيقًا كلاً على حدة (٢/٤٠٧-٤٠٨).

وفي هذا الميدان الاجتماعي لم يغفل باديا التطرق إلى ذكر احتفالات الأعراس، ومراسيم الجنائز ودفن الأموات؛ أما الأولى فلم يصف أي احتفال؛ نظرًا لأنه لم يشهده، وإنما اكتفى بتسجيل المعلومة التي تلقاها من بعض الأشخاص الذين أخبروه بأن مراسيم الزواج والميلاد لا تقام لها حفلات في مكة، كما تقام في بعض البلاد الإسلامية. أما الجنائز ودفن الأموات فيذكر أنه شاهد بعضها حيث يصلى عليها عند الكعبة، وتدفن خارج المدينة دون إقامة أية مراسيم (٢/٤١٠).

### ٣- المدينة المنورة :

تبقى المدينة المنورة هي المدينة الوحيدة من مدن الحجاز التي لم يتسن لباديا الدخول إليها وزيارتها؛ ذلك أنه بعد مغادرته مكة رجع إلى جدة في ٣ مارس ١٨٠٧م، ومن هناك أبحر إلى مدينة ينبع في

٣٠ مارس، ومن هناك كانت له رغبةٌ أكيدةٌ في زيارة المسجد النبوي بالمدينة على الرغم من أن السعوديين - كما جاء في كلامه - كانوا يمنعون الحجاج من القيام بهذه الزيارة. واستطاع أن يتفق مع قافلةٍ تضم حجاجًا أتراكًا ومغاربة لزيارة قبر الرسول ﷺ إلا أنهم في طريقهم إلى المدينة المنورة اعترضهم عدد من السعوديين، ومنعوهم من هذه الزيارة، وأرغموهم على الرجوع إلى مدينة ينبع؛ وبذلك لم يستطع دومينجو باديا الدخول إلى المدينة المنورة وزيارتها، وهذا أيضًا غير دقيق؛ لأن زيارة مسجد الرسول ﷺ ليست ممنوعة، وإنما الممنوع مظاهر التقديس الخارجة عن الدين.

**٤ - مدينة ينبع :**

بعد استقراره في ينبع مدة عشرة أيام - إذ إنه رجع إليها في ٤ أبريل، وغادرها يوم ١٥ من الشهر نفسه - استطاع باديا أن يجمع معلومات، ويسجل ملحوظات، تهم مختلف المستويات حول هذه المدينة.

أول ما يستهل به كلامه كعادته هو تحديد الموقع الجغرافي لينبع التي تقع - حسب ملحوظاته - على هضبة كبيرة (٣/٣٧٠)، أما خطوط الطول للمدينة فهي ٣٥- ١٢ شرقا، وخطوط العرض هي ٢٤- ٧ شمالا (٣/٤١).

وعن وصفها يقول : "المدينة محاطةٌ بسلسلةٍ من الأسوار غير منتظمة، قطرها يصل إلى مئةٍ وخمسين قدماً من الشرق إلى الغرب (ما يعادل: ٤٩ مترا وخمسين سنتم)، وحوالي مئتين من الشمال إلى الجنوب (ما يعادل ٦٦ مترا)، وعرض هذا السور لا يتعدى خمسة عشر بوصة (ما يعادل: ٤٠ سنتم)، وارتفاعه تسعة أقدام (ما يعادل: ٣ أمتار)، ما عدا بعض الأبراج الأكثر ارتفاعا، وكذلك برج آخر مجهز بسلاح المدفعية يوجد في منتصف هذه السلسلة من الأسوار "

(٣٨/٣)، وينتقل إلى وصف المنازل وشكلها؛ فيقول : "أما المنازل فهي منخفضة، وسقوفها مستوية، كلها تقريبا تحتوي على الطبقة الأرضية فقط، ما عدا بعضها التي تشتمل على طابق آخر. وهذه المنازل وجدرانها التي هي جديدة الشكل، مبنيةٌ بالحجر الكلسي الأبيض في وقت دخول الوهابيين إليها؛ وقبل ذلك كانت بالمدينة أكواخ مصنوعة بالعصي والحصائر فقط" (٣٨/٣-٣٩). أما ميناء ينبع فيقول عنه باديا : " إنه ميناء جيد؛ لأن الفرقاطات الكبيرة تستطيع الإبحار فيه، إلا أن مدخله صعب نتيجة وجود صخور كعائق أساسي" (٣٨/٣).

وفيما يخص الوضع السياسي بهذه المدينة، يقول باديا : "رغم أن ينبع تدخل تحت سلطة شريف مكة الذي يمثله فيها حاكم تحت لقب الوزير، إلا أن هذه المدينة اعترفت بسيادة الإمام سعود الذي يمثله قاضٍ هناك" (٣٩/٣).

وعن الوضع الاجتماعي يتطرق باديا إلى ذكر عدد السكان الذي يناهز ثلاثة آلاف نسمة (٣٨/٣)، ويتكلم عن نساء هذه المدينة، فيصف لباسهن وشكلهن بقوله : "النساء هنا يرتدين قميصا وسروالا من نسيج أزرق، ويغطين وجوههن بحجابٍ كبير أسود اللون، وحلقة تشق الغضروف الأيمن لأنوفهن، وعلاوةً على ذلك يحملن خواتمَ في أصابعهن، وأساور في أيديهن، وأقراطًا في آذانهن" (٤٠/٣).

## خلاصة واستنتاجات :

بعد هذا العرض حول الرحلة وصاحبها، يتضح لنا أن رحلة دومينجو باديا / علي باي العباسي تكتسب طابعًا خاصًا بها؛ لكونه رجلا أوربيا تقمّص شخصية أميرٍ عربي مسلم، وذهب في تمثيل هذا

الدور إلى أبعد الحدود، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، فاختار لنفسه شجرة نسب عربية، وارتدى الزي الشرقي، وقام بعملية الختان، وتعلم اللغة العربية، وواظب على الشعائر الإسلامية، واجتهد طوال رحلته أن يظهر في ثوب مسلم تقي، مما أهله أن يزور الأماكن الإسلامية المقدسة، ويقوم بتأدية مناًسك الحج، ويكسب ثقة جميع الفعاليات الحاكمة، فوصف مدن الحجاز، وقدم للجمهور الأوربي لوحةً مفصلةً لمنطقة الحجاز على مختلف المستويات : الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وإذا رجعنا إلى متن الرحلة، نجد أن باديا اعتمد بالأساس في تجميع هذه المعلومات، على مصدر الملاحظة، وأحيانا على الرواية الشفوية لبعض الأشخاص، وهذان المصدران هما ركيزة الكتابة الإثنوغرافية التي دأب عليها بعض الرحالة الأوربيين في القرن التاسع عشر، غير أن هذه المنهجية كثيرا ما تقع بصاحبها في خطأين، أولهما: انعدام الموضوعية وبالتالي فقدان النزاهة العلمية، وثانيهما: الوقوع في بعض الأخطاء في المعلومات المتعلقة بكثير من النواحي (التاريخية، الدينية، الاجتماعية...).

ومسألة الموضوعية التاريخية والنزاهة العلمية تفتقد في هذه المصادر، إذا علمنا أن باديا - كغيره من الرحالة الأوربيين - كانوا يؤلفون مصادرهم، ويكتبونها ليقدموها قبل كل شيء للقارئ الأوربي، وبالتالي يحاولون إنتاج الصورة السائدة في تلك الفترة : التخلف الفطري والمزمن للشرق، مقابل تفوق الغرب بصفته مركزًا لإنتاج المعرفة والتمدن، وهذه الظاهرة تولد "العجرفة الثقافية" التي تميز بها هؤلاء الرحالة، ومنعتهم من فهم الآخر معرفةً موضوعية.

ملحوظةٌ أخرى يمكن تسجيلها، عندما نحدد طريقةً لبناء المعلومات التي ساقها باديا، وندمجها في وحدةٍ متناسقةٍ ومتكاملة، تسهل علينا معرفة المعلومات التي ساقها حول منطقة الحجاز؛ فكل

المدن التي زارها الرحالة حظيت بتسجيل المعلومات حول مرافقها، ووصف معالمها، غير أن النصيب الأوفر حظيت به مكة، وهذا يرجع إلى المكانة الدينية التي تحظى بها؛ إذ كانت كذلك هي المستهدفة من طرف باديا لتأدية مناسك الحج، وما كانت تبثه هذه المدينة آنذاك من فضول في نفوس الأوربيين، تجعلهم يتوقون، ويجتهدون لزيارتها، للتعرف عليها وسبر أغوارها، كما أن المدة التي مكث فيها باديا بمدينة مكة (من ٢٣ يناير ١٨٠٧م إلى ٢ مارس ١٨٠٧م) كانت أطول من غيرها في المدن الأخرى، ووفرت له الوقت لتجميع المعلومات وتسجيل الملحوظات شملت جميع المستويات.

ولكنه على الرغم من الشطط والمبالغة التي وقع فيها الرحالة باديا في بعض معلوماته وملحوظاته، فإن رحلته لا تخلو من فوائد، وتبقى مصدرا تاريخيا حول أوضاع منطقة الحجاز في بداية القرن التاسع عشر، ولا يمكن دحض كل ما تحتوي عليه ونفيه.

صحيح أن باديا في رحلته كان يستهدف تقديم خدمةً للجانب الأوربي، وهذا ما دفع بعضهم إلى الاعتقاد أنه عميلٌ سريٌ لنابليون بونابرت، أرسله لدراسة الحركة الإصلاحية وكيفية تسخيرها لخدمة أغراض الإمبراطور الفرنسي في مصر وسوريا؛ وبعضهم الآخر رأى أن هذه الملحوظات الفلكية التي يقوم بها الرحالة في البحر الأحمر هي لحساب الوزارة البحرية الفرنسية(٢١)؛ غير أنه في رحلته إلى الشرق تحرر من الاهتمام الأكبر بالسياسة وخطط المؤامرات التي كلفه بها رئيس الوزراءٍ الإسباني كودوى في المغرب سنة ١٨٠٣م، وبدأت رحلته تأخذ وجهةً جديدة؛ إذ أصبح الهدف العلمي منها يجيء في المقدمة، ولم تكن رحلته إلى مكة ذات أغراض سياسيةٍ خفيةٍ، أو أهدافٍ تبشيرية، وإنما كانت تدخل بالأساس في مًجال الأنثربولوجيا،

---

(21) Kiernan : L'exploration ... op.cit. p. 108.

فقدم في مصدره لوحةً اجتماعيةً عن منطقة الحجاز، والعادات والتقاليد بها، وسلسلةً من الأحداث التاريخية، وصورةً حول الحياة الدينية. وقد أرفق ذلك برسوم ذات أهميةٍ كبيرة، فقد نسخ للمرة الأولى في دقة متناهية الآثار الإسلامية في مكة، وإليه يرجع الفضل في أننا نملك أقدم رسم وأدقه لموقع مكة الجغرافي تصويرا باليد(٢٢)، وهو الأول الذي استطاع تحديد المواقع الفلكية لجدة ومكة. وبذلك كان الوصف الذي قدمه لمدن الحجاز ومرافقها - وبالأخص المرافق الدينية في مكة - يعطينا صورةً حول وضعيتها على جميع المستويات في مطلع القرن التاسع عشر(٢٣).

وقبل إنهاء هذا العرض تجدر الإشارة إلى أن دومينجو باديا، بعد انتهاء رحلته ورجوعه إلى إسبانيا سنة ١٨٠٨م، واستقراره بفرنسا، حاول القيام برحلةٍ استكشافية أخرى إلى الحج لحساب فرنسا تحت اسم الحاج علي أبو عثمان. وفي ١٨ يناير ١٨١٧م غادر العاصمة الفرنسية قاصدا دمشق عن طريق البر، غير أنه لم يبلغ مراده؛ لأن المرض اشتد به، وتوفي في صحراء الأردن، ودفن على الطريقة الإسلامية في قلعة البلقاء في الجنوب الشرقي من الأردن(٢٤).

---

(٢٢) انظر هذه الصور في الملحق كما سبق الذكر، وقد أخذناها من الجزء الذي صدر مع رحلة علي باي الخاص بالرسومات والخرائط.

(٢٣) الرحالة الأوربيون الذين جاؤوا بعده لم يكتشفوا إلا أخطاء قليلة، والرحالة الإنجليزي السير ريتشارد بورتون Burton الذي جاء بعده بنصف قرن من الزمان نسخ عددا من الصور والرسومات لموقع مكة، وأشار كثيرا إلى رحلة علي باي، انظر :

Kiernan :L'exploration op.cit. p. 117 .

(٢٤) الطاهر أحمد المكي : المقال السابق، ص ١٩٢.

# الملحقات

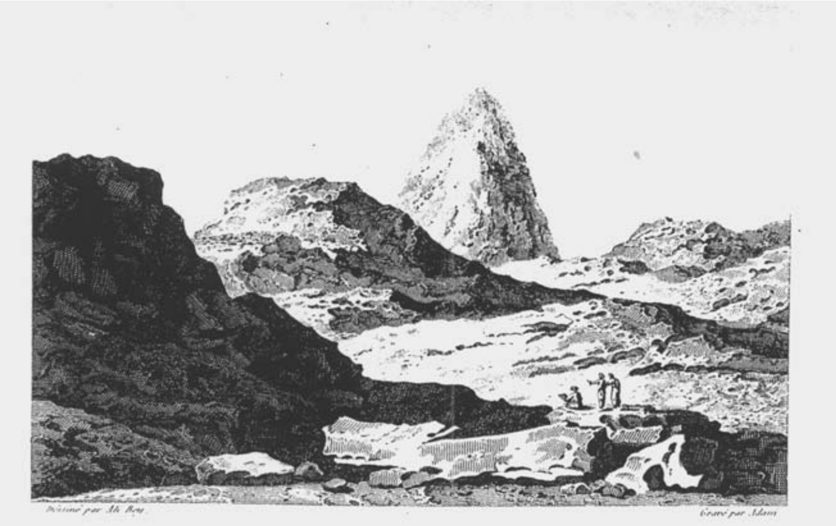
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : XLVIII (48)

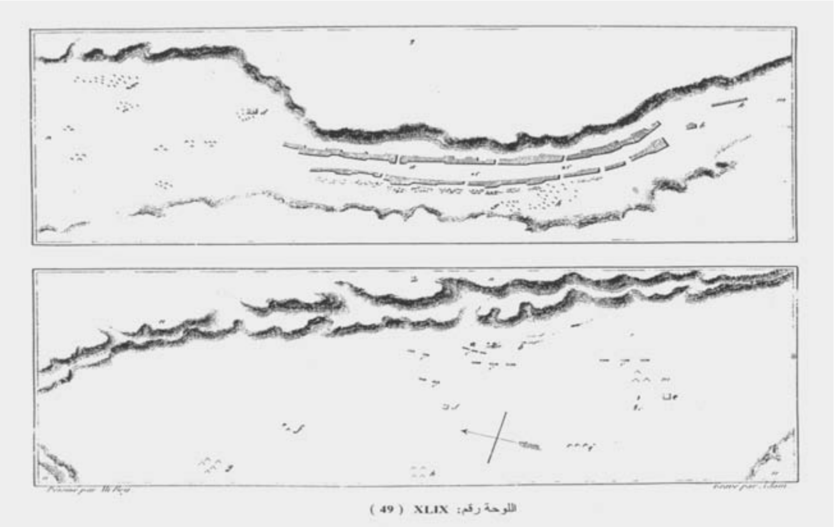
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam
اللوحة رقم: XLIX ( 49 )

اللوحة رقم : XLIX (49)

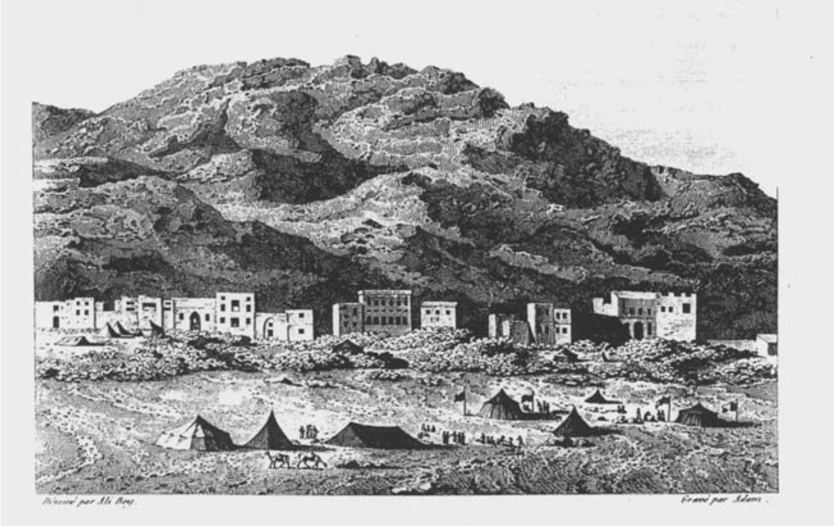
Dessiné par Ali Bey.
Gravé par Adam.

اللوحة رقم : L (50)

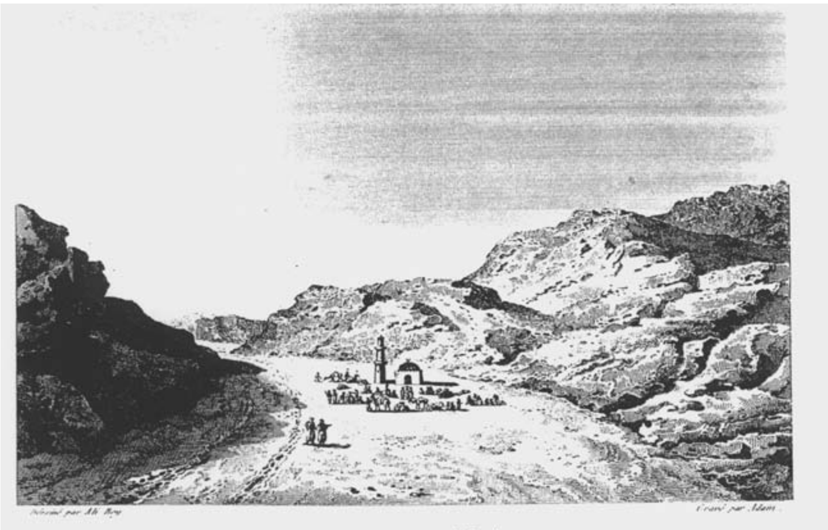
Dessiné par Ali Bey.
Gravé par Adam.

اللوحة رقم : LI (51)

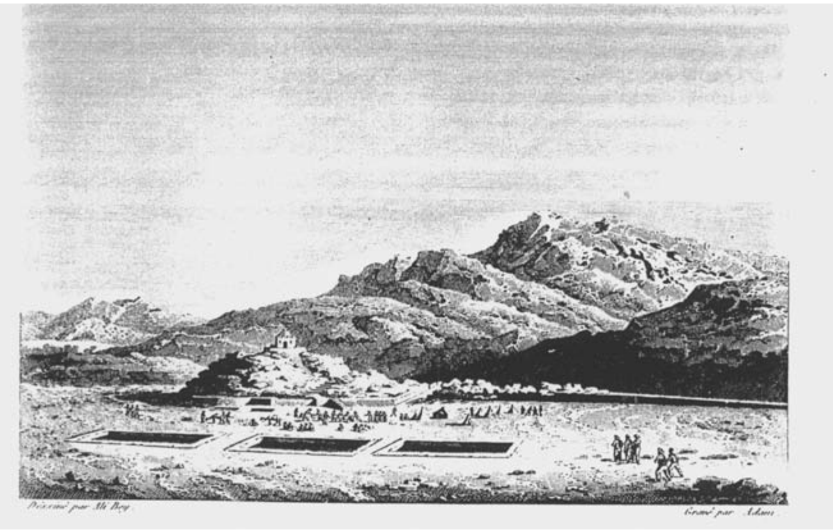
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LII (52)

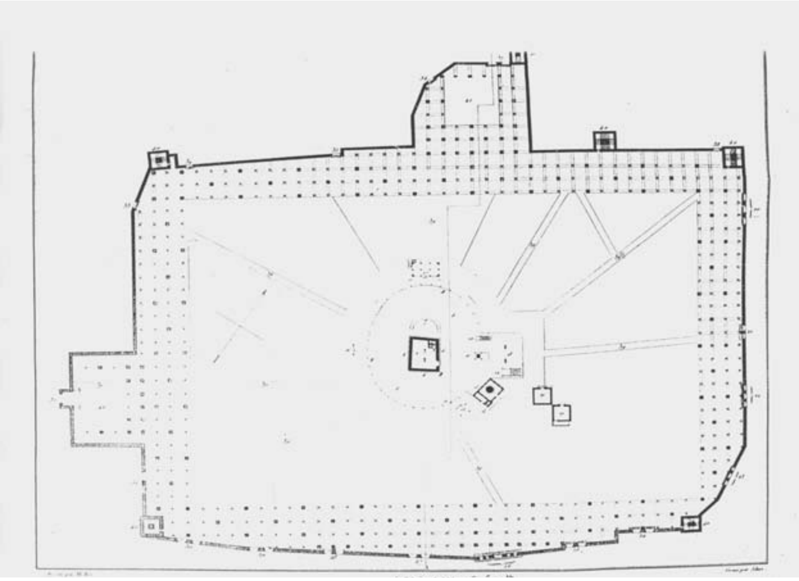

اللوحة رقم : LIII (53)

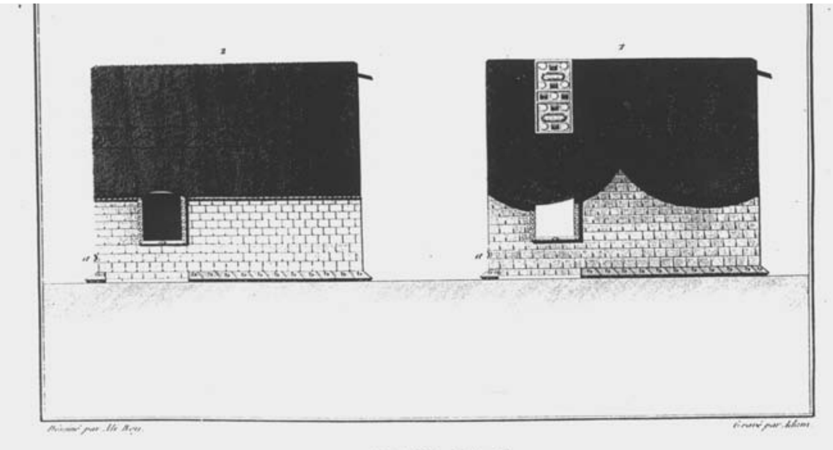
2
1
a
a
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LVI (56)

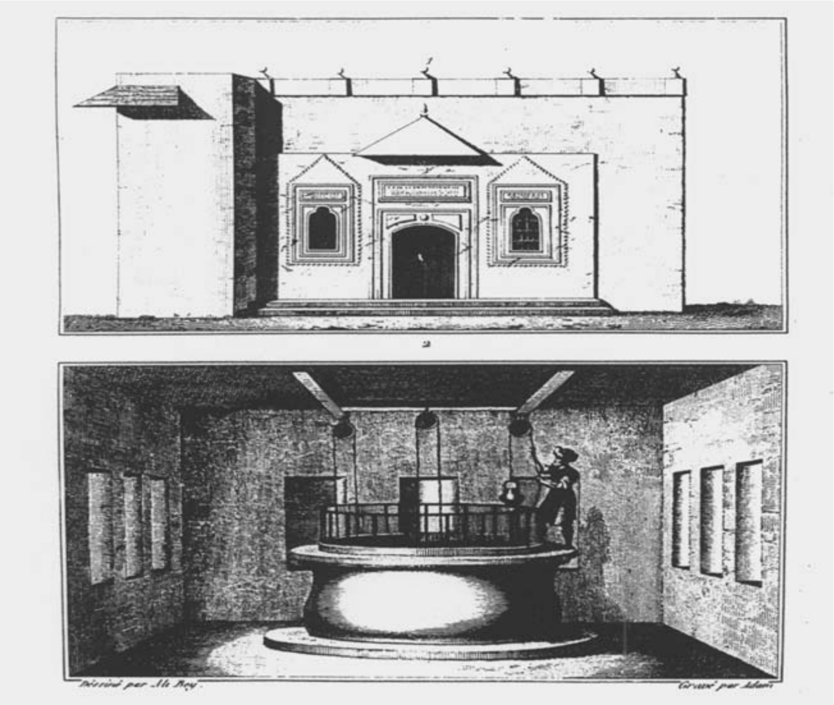
1
2
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LVII (57)

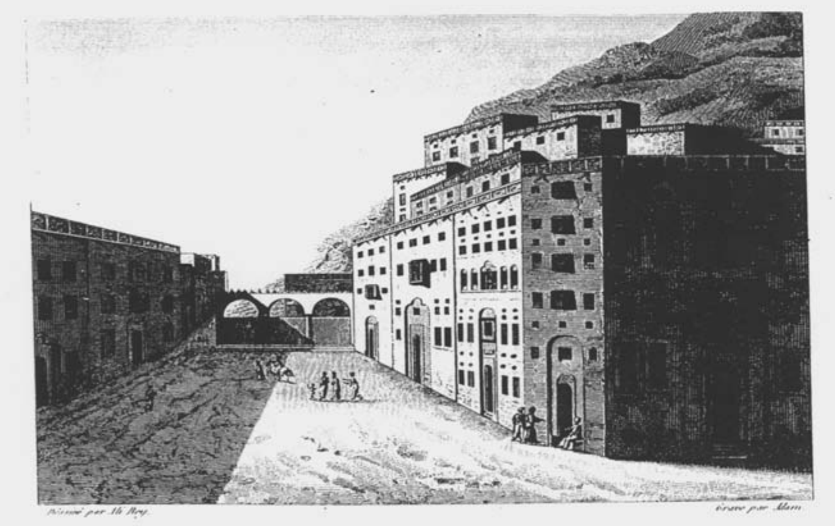
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LX (60)

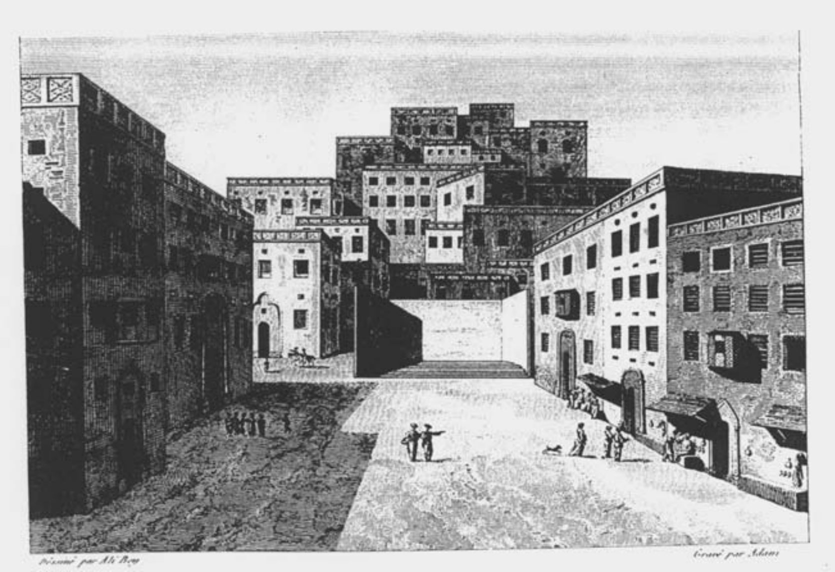
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LXI (61)

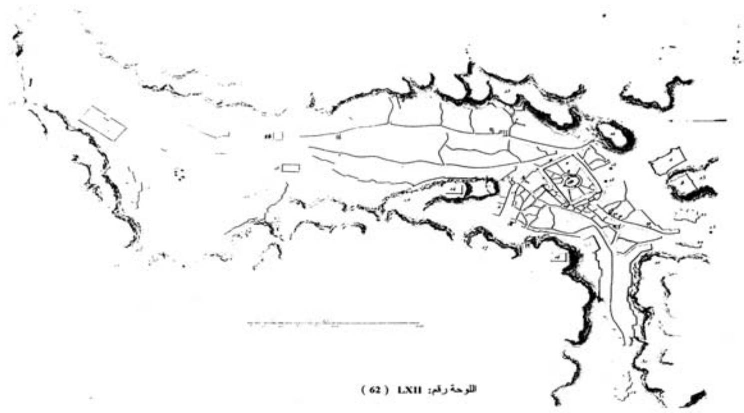
اللوحة رقم: LXII ( 62 )

اللوحة رقم : LXII (62)

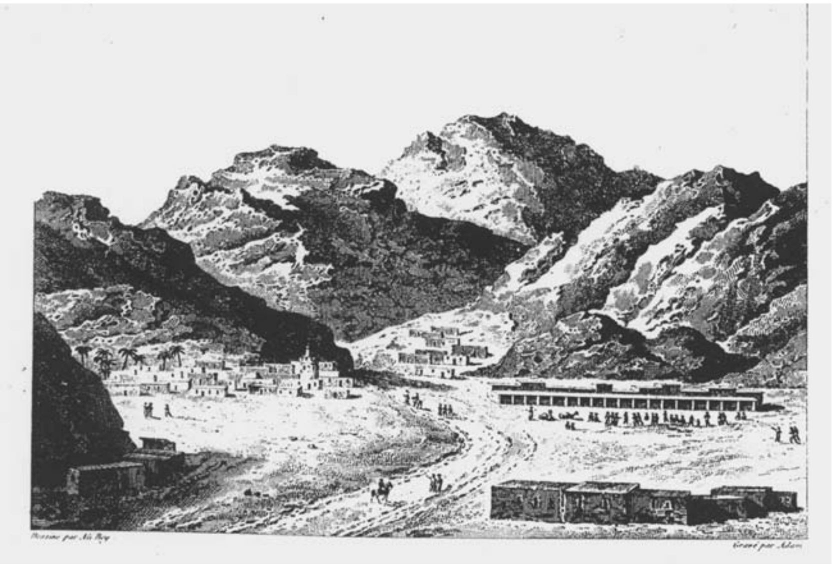
Dessiné par Ali Bey
Gravé par Adam

اللوحة رقم : LXV (65)